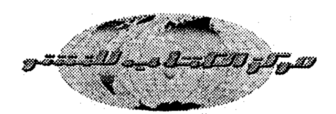
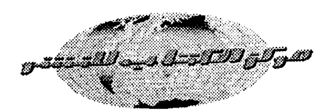
محنة الأئمة

مأمون غريب

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م



الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م



مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠
مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس- المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨
http://www.top25books.net/bookcp.asp.
E-mail:bookcp@menanet.net

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ .. ﴿١٠٥﴾ ﴾
[النساء :١٠٥]

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[المائدة :٤٨] .

« إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران .. وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » (حديث شريف) [رواه البخارى] .

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد دينها »
(حديث شريف) [رواه أبو هريرة]



إهــداء

إلى الذين عرفوا الطريق إلى اللّه ، فرسموا للإنسانية طريقاً ممهداً ، وكان اجتهادهم نور هداية للناس في كل العصور.. رغم ما عانوا من صعوبات، فقد كان كل همهم أن يوضحوا للناس معالم الدين الصحيح .. مهما كانت التضحيات .. ومهما كانت أشواك الطريق.

محنة الأئمة

- مقدمة ٩
١ - الإمام الحسين بن على ١٥
٢ - الإمام زيد بن على زين العابدين ٢٧
٣ - الإمام أبو حنيفة النعمان ٣٧
٤ - الإمام مالك بن أنس ٤٧
٥ - الإمام الليث بن سعد ٥٧
٦ - الإمام محمد بن إدريس الشافعى ٦٩
٧ - الإمام أحمد بن حنبل ٨١
٨ - الإمام أبو حامد الغزالى ٩١
٩ - الإمام العز بن عبد السلام ١٠٣
١٠ - الإمام محمد عبده ١١١



مقدمة

جاء الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام بالرسالة الخالدة.. رسالة الإسلام.. لتكون خاتمة الرسالات إلى يوم الدين.

وحملت هذه الرسالة الخالدة كل التعاليم والفضائل التى جعلت المسلم على صلة حقيقية بربه، وعلى صلة حقيقية بالناس.

فالإسلام هو دين التوحيد.

والإسلام جاء بشريعة تحدد علاقة الإنسان بربه وبالناس، وفيه من القيم والمبادئ والمعتقدات ما تجعل المسلم على بصيرة من حقيقة وجوده فى هذه الدنيا.

كما أن هذا الدين الحنيف الذى أخرج الأمة العربية من سباتها العميق إلى نور العلم والمعرفة وتأكيده على أهمية أن يكون الإنسان واعياً بحقيقة الكون ونواميسه من حوله، وأن يكون الإنسان قادراً على استيعاب حضارة عصره، ومستشرفاً أمال غد مشرق جديد.. بالعلم.. والعمل.. والأخذ بالأسباب.. مع الإيمان بخالق كل شىء.. وقدرته وهيمنته على الكون، ومعرفته بأدق خبايا النفوس والأشياء فى كونه.. الإسلام بكل هذا دين علم وتحضر وثقافة، وليس دين جهل وتخلف وانغلاق.

ولأن الإسلام هو الدين الخاتم.. ولأنه لكل زمان ومكان، كان لابد من الاجتهاد.. فالاجتهاد هو الذى يعطى لهذا الدين مرونته وحيويته وقدرته على استيعاب المتغيرات فى مختلف العصور، منذ أن جاء الرسول برسالته إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها.

فالاجتهاد.. يعنى التقدم.

والاجتهاد.. يعنى أن يكون الإسلام صالحاً لكل العصور والاجتهاد يعنى تفسير كل الظواهر المستحدثة فى المجتمع وجعلها تتوافق مع أحكام الشريعة.

ولو تصورنا أن باب الاجتهاد قد أغلق، فمعنى ذلك أننا نجمد حركة الحياة.. وحركة التطور، وحركة النهضة.. وأن نقف بينما العالم يتقدم من حولنا.. وبالتالى نتخلف عن موكب الحياة فى تطوره ونمائه وانطلاقه إلى غد جديد.. لأن الحياة من طبيعتها التغير.. أو على حد تعبير أحد فلاسفة اليونان: «إنك لا تنزل إلى النهر الواحد مرتين» بمعنى أن الحياة متموجة متغيرة متقلبة فالإسلام دين مرن صالح لكل زمان ومكان، وكتاب الله الذى تعهده اللّه سبحانه وتعالى بالحفظ موجود.. وهو المرجع لمعرفة صحيح الدين.. وسنّة الرسول ﷺ قائمة توضح ما يجب أن يعرفه المسلم عن دينه.

والإسلام فيه (ثوابت) وهى المعتقدات من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، وفيه متغيرات تختص بالمعاملات وشرح الشريعة (الفقه).. يتطلب أن يظل باب الاجتهاد مفتوحاً.. حتى يفسر كل جديد بنظره لا تخالف صحيح الدين.

ومن هنا فقد ظهر الأئمة الكبار.

درسوا القرآن الكريم وعلومه.

ودرسوا سنة الرسول.

وكان لهم من المعرفة والموهبة ما أهلَّهم أن يكون فقههم نور هداية للناس، وعلامة طريق لكل من يريد أن يفهم أمور دينه عن وعى وبصيرة.

ومع كل ما قدمه هؤلاء الفقهاء الكبار من فقه وعلم لم يلزموا به أحداً من الناس.. بل لاقوا صنوفاً من التعذيب، وشعروا بالهوان، وهم يرددون ما يرونه هو الحق.. ولم ترهبهم سلطة ولا سلطان، ولا خشوا فى سبيل معتقداتهم إلا اللّه، بل أنهم فضَّلوا ما عند الله عما عند السلطان، وكان بإمكانهم أن يصلوا إلى أعلى المراتب المدنية، ولكنهم رفضوا كل المظاهر التى تبعدهم عن الحق، وآثروا ما عند اللّه عما عند العباد.. فكانوا خير قدوة وخير مثال.

الإمام الحسين مثلا . . كان على فقه عظيم، وكان شديد الخوف من اللّه، وكان يمكنه أن يعيش آمناً بعيداً عن بطش السلطة، لو أنه نطق بكلمات . . ! وأن يبايع بنى أمية بالخلافة!

ولكنه وقف مع المبدأ الذى يؤمن به . . وأن بنى أمية حوّلوا الخلافة إلى ملك عضوض ، وتجاهلوا الشورى، وأخذ البيعة من الناس بالإكراه وحد السيف حيناً، وبالدهاء والمكر حيناً آخر، فرأى الإمام الحسين ألا يبايعهم بالخلافة . . بل رأى أن يواجههم رغم أنه يعرف تماماً أنه وبما حوله من بعض الأنصار لا يمكنهم أن يقضوا على سلطة بنى أمية العاتية، ونفوذهم الضخم فى أنحاء العالم الإسلامى . . ولكن الإمام الحسين كان يريد أن يهز المجتمع الإسلامى من الأعماق . . أن ينبه الناس إلى ظلم بنى أمية وعدم أحقيتهم فى خلافة اغتصبوها بحد السيف.

كان الإمام يريد أن يطلق صيحة مدوية تجعل العالم الإسلامى يفيق، حتى لو ذهب هو نفسه ضحية هذا الاعتقاد . . وقد استشهد الإمام الحسين فى كربلاء بالفعل . . وكان دمه علامة طريق فى سبيل التحرر من بنى أمية، أو أحد الروافد التى كانت سبباً فى انهيار ملكهم فيما بعد.

والذين قرأوا سيرة الإمام الحسين يرون كيف كان شديد التأثر بجده ﷺ ، وقد روى هو عن أبيه الإمام على بن أبى طالب الكثير عن جده . . ومثال ذلك قوله رضى الله عنه :

سألت أبى عن سيرة رسول الله ﷺ فى جلساته فقال: كان رسول الله دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب ولافحاش ولاعياب ولا مشاح، يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤيس منه، ولا يخيب فيه، فقد ترك نفسه من ثلاث : المراء، والإكبار وما لا يعنيه.

وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحد ولا يعيبه ولا يطلب عورته . . ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه ، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا

سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا إليه حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون، ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته، حتى أن كان أصحابه ليستجلبونهم ويقول:

« إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فارفدوه ، ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء، ولايقطع على أحد حديثه حتى يجور فيقطعه بنهى أو قيام».

ولا شك أن الإمام الحسين قد تأثر بما رآه وسمعه عن جده العظيم ، ومع ذلك فلم يرحمه طلاّب الدنيا وقتلوه تقرباً وزلفى للسلطان.

***

ونرى حفيده الإمام زيد بن على زين العابدين الذى عاش حياته طلبا للفقه والعبادة ولكنه وجد نفسه هو الآخر مضطراً لمقاومة الظلم، ورفع راية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وانتهت حياته شهيدا.

فإذا ما توقفنا عند أئمة الفقه الكبار من أمثال أبى حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعى، وأحمد بن حنبل، فنرى نماذج رائعة لهؤلاء الذين عاشوا للعلم وبالعلم، وآثروا ما عند اللّه على ما عند العباد، فأبو حنيفة مثلا الذى قال عنه الإمام الشافعى:

- ما كانت الناس على رجل أعقل من أبى حنيفة .. ولكنه مع ذلك رفض أن يلى القضاء، ولم يرضخ لما يعتقد أنه الصواب، حتى أن أمه قالت له وقد رأته وقد ضرب بالسياط.

(يا نعمان إن علما ما أفادك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه).

فقال: يا أماه .. لو أردت الدنيا ما ضربت ، ولكن أردت وجه الله تعالى وصيانة العلم، ولم أعرضه للهلكة.. وكان مع كل علمه وفضله وفقهه يقول:

- علمنا هذا الرأى . . فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه . . ومع كل ما لاقاه من صلف الحكام وطغيانهم ، ظل هو القريب من اللّه، حتى أنه آثر أن يلقى ربه ساجداً.

***

والإمام مالك بن أنس . . صاحب الموطأ كان يقول:

- ما أفتيت حتى شهد لى سبعون، ولو نهونى لانتهيت.

وكان يرى أن العلم ليس بكثرة الرواية ، ولكن نور يضعه الله فى القلب.

- والإمام الشافعى قالوا عنه : كان الشمس للدنيا والعافية للناس، وليس منه عوض.

ويروى الرواة أن ابن معين قال لصالح بن أحمد بن حنبل :

- ما يستحى أبوك . . يمشى وقد أخذ بركاب الشافعى؟

وعندما تحدث صالح لوالده فى ذلك كان رد الإمام أحمد بن حنبل:

- قل له إذا أردت أن تتفقه فخذ بركابه الآخر . . والإمام أحمد بن حنبل الذى لم يتزوج إلا بعد الأربعين طلباً للعلم، وكتب المسند الذى صنفه سنة ١٨٠هـ ويضم مائة وعشرين ألف حديث.

و . . . ما أكثر الفقهاء الذين تركوا لنا فقها ومواقف لاتنسى من أمثال الإمام الغزالى، والعز بن عبدالسلام. . والإمام الليث بن سعد والإمام محمد عبده . . أسماء لامعة فى سماء الفكر الإسلامى، وعندما تتوقف عند أفكارهم، وما تركوا من روائع أثرت فى الفكر الإنسانى، فإن ذلك يذكرنا بأسماء كتب لاجتهاداتهم الخلود، رغم أنهم عانوا فى حياتهم، وعرفوا التعذيب. . وعرفوا مرارة السجون. . وعرفوا الهوان مع الناس. . ولكنهم لم يبالوا بما لقوا، لأن لهم رسالة أسمى وأخلد. . وذهب الذين عذبوهم . . وطواهم النسيان. .بينما بقى هؤلاء الأئمة

بفكرهم واجتهادهم فى قلوب الناس.. ملايين الناس.. عبر كل العصور.. وإلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها.

وحول سيرة حياة هؤلاء الأعلام، لنا وقفة سريعة .. أشبه بنظرة طائر إلى أعمالهم.. وحياتهم حتى نعرف أقدارهم.. وفى نفس الوقت نعرف أن الفكر الإسلامى لا يعرف العقم.. فقد ظهر وسيظهر مجتهدون .. يخدمون دينهم.. ويخدمون الإنسانية من خلال وعيهم الجاد للدين الحنيف.

مأمون غريب



الإمام الحسين

- قتلوا أنصاره وبقى وحده يقاتل حتى الموت .!

- كيف قطعوا رأسه تملقاً لسلطة بنى أمية.

- الرأس الشريف فى القاهرة.

أفظع جريمة فى التاريخ الإسلامى

مقتل الحسين فى كربلاء

ربما لم يشهد التاريخ الإسلامى كله جريمة بشعة كتلك التى حدثت للإمام الحسين وآل البيت فى كربلاء. . فلم يتورع مرتكبو هذا الحادث المروع والأليم أن يمثلوا بجسد سيد الشهداء الإمام الحسين وينتزعوا رأسه الشريف ويضعوه على أسنة السيوف، وهم يعلمون أنه حفيد النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام ، وابن فاطمة الزهراء سيدة نساء أهل الجنة. . كل ذلك إرضاء للسلطة والسلطان . . خافوا الحاكم ولم يخافوا اللَّه ، ولم يراعوا حرمة آل بيت رسول الله ، والحادثة فى ذاتها ترسم أكثر من علامة استفهام حول نوازع النفس البشرية عندما تضل الطريق وتتوه فى خضم أطماع الحياة؟!

ولنعد إلى الوراء قليلاً. . إلى أيام النبى فى المدينة، حيث أصبحت عاصمة للإسلام. . تنطلق منها الجيوش لتحطم باطل مكة ومختلف القبائل، وتسير مع نسماتها أنفاس النبى الكريم وهو يدعو الناس إلى التوحيد وقيم وفضائل وعقائد الإسلام، وبدأ الإسلام ينشر نوره وضياءه بعد انتصاراته الكاسحة على المشركين من عُبَّاد الأصنام وعلى مؤامرات اليهود الذين خانوا العهود وكانوا شوكة فى ظهر الإسلام. حيث استطاع الرسول أن يكبح جماحهم، وينتصر عليهم فى كل المواقع التى خاضها ضدهم. . فى هذا الجو المتألق بنور الإيمان وألق الانتصارات ولد الحسين لخمس خلون من شعبان فى السنة الخامسة من الهجرة وقد قال عنه أعظم رسل السماء.

«حسين منى وأنا من حسين ، أحب من أحب حسينا»

و. . ما أكثر الأحاديث النبوية التى قيلت فى الحسن والحسين وعندما نزلت الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب:٣٣]

أرسل النبى ﷺ إلى على وفاطمة وابنيهما فقال: « هؤلاء أهل بيتى».

وفى ظل النبوة .. نشأ الحسين وترعرع على التقوى والشجاعة وحب العلم، وحب كل ما نادى به الدين الحنيف ومضت الأيام وقبض رسول الله إلى أكرم جوار ولحقت به بعد شهور ابنته فاطمة الزهراء، وقامت الخلافة الراشدة، وشاهد الحسين ما جرت به الأيام من أحداث فقد اتسعت الفتوحات الإسلامية ، وشملت الأمبراطورية الفارسية كلها واقتطعت مساحات شاسعة من ممتلكات الروم، ودخلت فى دائرة الإسلام بجانب الفرس ، العراق والشام ومصر والشمال الأفريقى، ولولا قيام الفتنة الكبرى فى نهاية خلافة عثمان، واشتداد الحروب الأهلية فى خلافة الإمام على، لوصل الزحف الإسلامى إلى أماكن لم تخطر على بال.

كيف قطعوا رأسه تملقاً لسلطة بنى أمية ؟

اشتد النزاع بين على ومعاوية، إلى أن قتل الإمام علىّ على يد أحد الخوارج (عبدالرحمن بن ملجم) نجا من المؤامرة التى دبرها الخوارج للتخلص من على ومعاوية وعمرو بن العاص.. نجا من هذه المؤامرة معاوية وعمرو وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وهكذا استتب الأمر لمعاوية، والذى سرعان ما حول الخلافة إلى ملك عضوض.

وعندما مات معاوية آلت الخلافة لابنه يزيد وكان معاوية قبل موته قد أخذ له البيعة من الصحابة بالقوة حينا، وبالمكر حيناً آخر.. كان من الطبيعى ألا يرضى الحسين بأن تتحول الخلافة إلى ملك عضوض لبنى أمية، فثار على هذا الوضع الجائر، ورفض إعطاء البيعة ليزيد وكان لابد أن يتحول هذا إلى صدام، وأن تجرى الأمور إلى حد المواجهة، والإمام الحسين لا ينقصه الإيمان بعدالة مطلبه بأن يعود الحكم شورى بين المسلمين، ولا يتحول إلى ملك يتوارثه بنو أمية، كما كان لا تنقصه الشجاعة التى اشتهر بها ليواجه صلف يزيد بن معاوية مهما كانت أشواك الطريق.

كان الإمام الحسين شخصية بالغة الثراء والمهابة، حتى أن عبدالله بن عمرو بن العاص قال للناس عندما رأى الحسين فى مهابته يدخل إلى مسجد جده عليه الصلاة والسلام.

- ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى السماء؟

قالوا: بلى.

- هذا الماشى . . وأشار إلى الحسين . . وقال:

ما كلمنى كلمة منذ ليالى صفين . . ولئن يرض عنى أحب إلىّ من أن يكون لى حمر النعم.

عندئذ قال له أبو سعيد الخدرى : ألا تعتذر له؟

وذهب واعتذر له ، بأنه ما ذهب إلى صفين لقتاله أو قتال الإمام على، ولكن ذهب تحت ضغط والده عمرو بن العاص.

لقد أرسل له أهل العراق ليذهب إليهم لمبايعته، ووجدها الإمام الحسين مناسبةً للثورة على الحكم الأموى مهما كانت النتائج.

وهنا يبرز تساؤل هل كان الإمام الحسين متيقنا بالانتصار على جيوش الإمبراطورية الأموية؟

أم كان يريد الشهادة لعل دمه الذكى يذكر الناس بضرورة الثورة على ظلم الطغاة!

لقد نصحه أخوه الحسن قبل وفاته قائلاً له:

- إن أباك قد استشرف لهذا الأمر فصرفه الله عنه، ووليه أبو بكر . . ثم استشرف لها وصرفت عنه إلى عمر، ثم لم يشك فى وقت الشورى أنها لا تعدوه فصرفت إلى عثمان، فلما قتل بويع بها، ثم نوزع حتى جرد السيف فما صفت له، وإنى والله ما أرى أن يجمع الله فينا النبوة والخلافة فلا أعرفن بما استخفك سفهاء

الكوفة فأخرجوك؟ ولقد نصحه الكثير من أبناء الصحابة ألا يذهب إلى العراق ومنهم عبدالله بن عباس ، ولكن الإمام لم يسمع لأى نصيحة . . وكأن القدر يسوقه سوقاً إلى الذهاب إلى العراق، حيث تخلى عنه من أرسلوا له للذهاب إليهم ومبايعته، وتركوه وحده مع آل بيت الرسول يواجهون سيوف بنى أمية، وسيوف من يريدون الزلفى إلى السلطة والسلطان!.

كان الحسين قد أرسل مسلم بن عقيل إلى العراق ليعرف الحقيقة عن قرب ويرى مدى التزام أهل العراق بالبيعة له، وأرسل معه رسالة إلى أهل العراق، وعندما دخل الكوفة، وعلم الناس بقدوم ابن عم الحسين ، ذهبوا إليه وبايعوه، وما كان هذا الأمر يمكن أن يخفى على يزيد بن معاوية، الذى أمر بتولية عبيد الله بن زياد أمر الكوفة والبصرة حتى يمكنه التصدى لأتباع الحسين وقتل مسلم بن عقيل! . . والذى استطاع القبض عليه وقتله بعد أن تخاذل عنه الناس، وانفضوا من حوله، وتركوه وحده يواجه مصيره المحتوم . .

ويقول الرواة ومنهم ابن جرير الطبرى ، ان مسلم بن عقيل قد بكى عندما رأى انفضاض الناس من حوله وعندما سأله أحدهم : إن من يطلب مثل ما تطلب، لا يبكى إذا نزل به مثل الذى أنزل بك.

فقال مسلم : إنى والله ما لنفسى أبكى ، ومالها من القتل أرثى، وان كنت لم أحب لها طرفة عين تلفا، ولكن أبكى الأهلين المقبلين إلى الكوفة، أبكى الحسين وآل الحسين. . ثم أقبل على محمد بن الأشعث فقال:

– يا عبدالله إنى واللّه أراك ستعجز عن أمانى، فهل عندك خير تستطيع أن تبعث رجلا على لسانى يبلغ حسيناً عنى رسالة؟ فإنى لا أراه إلا قد خرج إليكم اليوم أو غدا هو وأهل بيته، وإن ما تراه من جزعى لذلك فتقول له: ان ابن عقيل بعثنى إليك وهو فى أيدى القوم أسير لا يدرى أيصبح أم يمسى حتى يقتل، وهو يقول لك: أرجع بأهلك، ولا يغرنك أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيك الذى كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل، إن أهل الكوفة قد كذبوك وليس لكاذب رأى، وقد أوفى الرجل بما

وعد ، وبعث بالرسالة إلى الإمام الحسين ولكن الحسين كان قد عزم على الرحيل، وكان ردّه على هذه الرسالة التى بعث بها ابن عمه عقيل : «كل عاصم نازل . . عند الله نحتسب أنفسنا وفساد أئمتنا» .

ولم يسمع الإمام الحسين كل من نصحوه بالعودة ، وكان يقول لمن ينصحه بالعودة :

«إنى رأيت رؤيا . . رأيت رسول الله ﷺ أمرنى بأمر أنا ماض له، ولست بمخبر بها أحد حتى ألاقى عملى» .

ومضى الإمام الحسين فى طريقه، ومعه آل بيت رسول الله ﷺ .

ويقول الرواة أن الحسين لقى الشاعر المعروف الفرزدق وسأله عن الناس وموقفهم منه، فقال له الشاعر :

«قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بنى أمية، والقضاء ينزل من السماء واللّه يفعل ما يشاء» .

ويمضى الإمام الحسين فى طريقة لا يثنيه شىء عما أراد كأنه يريد أن يوقظ الناس من سباتهم ، ولن يوقظهم من سباتهم إلا حدث ضخم . . هذا الحدث هو دم الحسين نفسه .

كما أنه لم يفصح لأحد عن رؤيته للرسول عليه الصلاة والسلام وفحوى هذه الرؤية .

وقابله جيش يزيد، وضيّق عليه الخناق ، حتى دفعه إلى كربلاء . . وبدأ بعض من كان يؤازره من أهل الكوفة يتلمس الطريق إلى النجاة . وهرب بعضهم تحت جنح الظلام . . وبدأ الزمن يسير بطيئاً . . وأخذ الإمام وهو رابط الجأش ، يعد العدة لما سوف يحدث لم تأخذه رهبة ولا خوف ، ولكنه كان خائفاً على أصحابه ، وكان يمكن أن يضع للأمر كله نهاية خاصة عندما تحرك ابن سعد فى جيش كبير لحصاره ، وهو يدرك تماماً أنه يمكنه أن يضع نهاية للمأساة، لو أنه قال لقائد جيش عبيد الله بن

زياد أنه سوف يبايع يزيدا . . وهو يعلم أيضاً أن هؤلاء يتربصون به الدوائر ينتظرون تلك اللحظة، ومن الصعب عليهم قتل حفيد رسول الله ﷺ، ومن الصعب عليهم مواجهة حب رسول الله، وأى كلمة تصدر منه وتنهى هذا الموقف الصعب سوف يستجيبون له! .

بل ان ابن سعد قد شعر بالسعادة عندما أمهله الحسين ليلة قبل القتال، ظناً منه أن الحسين سوف يبايع (يزيد بن معاوية) . . وينهى هذا الموقف الصعب، ولكن الإمام الحسين . . صاحب المواقف ، لم يكن يطلب هدنة، حتى يفكر فى أمر مبايعة يزيد، ولكنه كان يطلب الهدنة حتى يتيح لمن اتبعه من الأنصار، أن يفروا من ميدان القتال تحت جنح الظلام ، فهو وحده المطلوب دمه . . وهو وحده الذى ترصده عيون الحاقدين والمنافقين، حتى ينالوا بقتله الحظوة من السلطان . .

وتحت جنح الظلام قال لأصحابه بعد أن حمد الله وأثنى عليه.

أما بعد:

فإنى لا أعرف أصحاباً خيراً من أصحابى . . ولا أهل بيت أبر وأوصل من أهل بيتى . . فجزاكم اللّه خيراً فقد بررتم وأعنتم.

وأنكم لتعلمون أن القوم لا يريدون غيرى . . وأن يومى معهم غداً . . وأنى قد أذنت لكم جميعاً فانطلقوا فى غير حرج . . ليس عليكم منى ذمام. هذا هو الليل قد غشيكم، فانطلقوا فى سواده قبل أن يطلع النهار، وانجوا بأنفسكم.

ولكن آل بيت رسول الله الذين جاءوا معه، لم يكن من السهل عليهم الفرار من المعركة . . وليس هذا من طبعهم ولاديدنهم فقد عاشوا للّه وباللّه . . لم ترهبهم الحشود التى حاصرتهم ومنعت عنهم الماء!

ولم ترهبهم هذه الحشود التى جاءت لتسفك دماء أهل بيت نبيهم عليهم الصلاة والسلام الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور وهداهم إلى نور التوحيد، وإلى قيم الإسلام ومبادئه . .

وكيف يجرؤ هؤلاء القوم على قتل حفيد أعظم رسل الله؟. وكيف تجرؤ هذه الكلاب الضارية على نهش أجسام طاهرة، تربت وترعرعت فى حضن رسول الله؟!

وفى هذا الموقف البالغ الصعوبة، صاح أخوه لأبيه العباس بن على:

معاذ الله والشهر الحرام . . وماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم . . نقول تركنا سيدنا وابن سيدنا غرضا للنبال، ودرينة للرماح، وحرزا للسباع، وفررنا عنه رغبة فى الحياة؟

. . معاذ الله . . معاذ الله . . بل نحيا بحياتك ونموت معك . .

وسأله ابنه (على):

- ألسنا على الحق يا أبتاه؟

فقال له الإمام الحسين :

- بلى . . والذى أنفسنا بيده . .

فرد ابنه:

- إذن واللّه لا نبالى.

ومضت تلك الليلة . . ليلة العاشر من المحرم. . وأصبح الصباح والكل يترقب ما تسفر عنه الأحداث.

وقف عمر بن سعد قائد جيش يزيد فى أربعة آلاف مقاتل. . وأمامهم آل بيت رسول الله وعلى رأسهم الإمام الحسين وعددهم اثنان وسبعون.

والعجيب أنه قبل القتال قاموا للصلاة ، وفى هذه الصلاة طبعاً قرأوا:

- اللهم صل على محمد وعلى آل محمد.

فكيف طاوعتهم نفوسهم على قتل آل محمد الذين يصلون عليهم فى صلواتهم المفروضة.

وكان لابد أن يبدأ القتال . . وبدأ القتال. . وبدأت السهام تتناثر حول آل بيت رسول الله، وحول حفيده العظيم.

ولم يكن هناك من سبيل أمام الإمام الحسين إلا القتال بعد أن رفضوا طلبه بالعودة إلى مكة وضيّقوا عليه الخناق. . ومنعوه وأهله من الاقتراب من الماء، وكان لابد أن تبدأ المذبحة . . حيث تقدم أصحاب الحسين بعد أن ابتدأوهم بالقتال يدافعون عن الحسين، حتى تساقطوا ولم يبق إلا الحسين وحده يقاتل جيشاً كاملاً، وهم يتكالبون عليه، حتى سقط صريعاً ، وتقدم أحدهم بعد أن خارت قواه، وأصبح جثة هامدة ، ليجتث الرأس الشريف بأمر من شمر ذى الجوش، وهكذا انتهت المعركة بمصرع آل البيت جميعاً. .

والغريب أنهم ساقوا آل البيت أسرى لمقابلة عبيدالله بن زياد، ولم يبالوا أن يجعلوا نساء آل البيت يمررن على جثث الشهداء مما حدا بالسيدة زينب رضى الله عنها أن تصيح:

« يا محمداه . . يا محمداه . . صلى عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين بالعراء مرمل بالدماء مقطع الأوصال. . يا محمداه . . وبناتك سبايا ، وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا».

وقارئ سيرة الإمام الحسين ، يعرف كيف واجهت السيدة زينب رضى الله عنها صلف عبيد الله بن زياد. . وصلف وشماتة يزيد بن معاوية وكيف أفحمتهما بمنطق وبلاغة آل بيت رسول الله ﷺ .

ولقد أعجبنى ما كتبه خالد محمد خالد عن نهاية هذه المعركة:

- . . كان النهار قد لفظ آخر أنفاسه . . ومالت الشمس للغروب مخلفة وراءها شفقا عجيبا فى حمرته الزاهية ، ووهجه المتألق !. وقد امتد على طول الأفق ، وكأنه بساط وضع ومهد لتعرج إليه إلى جنان الله أرواح الشهداء.

وعلى غير عادة الطقس والمناخ فى ذلك الحين وفى تلك الأرض دوت طلقات

قوية صادعة كأصوات الرعود . . ولقد حسبها المجرمون نذيراً لهم . . ولكن لا . . فهم أهون على الله من ذلك .

إنما هى السماء . . كانت تطلق مدافعها تحية .

تحية إجلال . . للمهمة التى أنجزها الشهداء . .

وتحية استقبال ، للأرواح التى كانت قد بدأت رحلة خلودها إلى حيث تتلقى من يمين الرحمن ما أعده لها من مثوبة ونعيم وعطاء .

ومن المعروف أن الرأس الشريف قد انتقل إلى مصر فى مكانه الحالى فى ٨ من جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ هـ ، وستظل سيرة الإمام الحسين واستشهاده العظيم مثالا يضرب للتضحية والفداء . . كما ستظل سيرة حياته واستشهاده من المواقف العظيمة لأصحاب البطولات العظيمة الذين يضعون المبادئ فوق المصالح لأن المبادئ تبقى والمصالح تزول .



الإمام
زيد بن على زين العابدين

- قتلوه ونبشوا قبره ومثلوا بجثمانه.

الإمام زيد بن على زين العابدين

عاش الإمام زيد بن على زين العابدين فى عصر بلغت الفتوحات الإسلامية قمة مجدها، فجيوش الإسلام تنتقل من نصر إلى نصر، ورايات الإسلام تخفق من الصين حتى المحيط الأطلنطى.. هذا المحيط الذى كان يطلق عليه بحر الظلمات لأنهم لا يعرفون فى هذا الزمن ما وراء هذا المحيط وعاش الناس هذا المجد مشغولون بالجهاد فى سبيل نشر الإسلام ومبادؤه وقيمه ، غاضين الطرف عن الجانب السلبى من حكم بنى أمية، حيث كانت تسود المظالم، وقمع كل الحركات التى يرون فيها مساساً بالعرش الأموى بقسوة شديدة.

فى هذا الجو ولد زين بن على زين العابدين فى المدينة سنة ٨٠هـ.

ولد فى جو مفعم بالأحزان ، فوالده على زين العابدين هو الوحيد الذى نجا من كارثة كربلاء حيث استشهد الإمام الحسين ومعه من وقف بجانبه من آل البيت.

ولم ينج والده إلا لأنه كان صغير السن مريضا حمته عمته السيدة زينب رضى الله عنها.

وظل زيد بن على يتذكر ما كان يسمعه عن أحداث كربلاء، وعن الوحشية التى لقيها آل البيت من يزيد بن معاوية وأعوانه تملأ سمعه وبصره رغم أنه سمع عنها ولم يرها:

كان بنى هاشم يتوقون للخلافة بعد رحيل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى جوار ربه وكان الإمام على بن أبى طالب يرى أنه الأولى بالخلافة ، وحدث أن اختلف الناس عقب وفاة الرسول الكريم فى «سقيفة بنى ساعدة» على من يكون خليفة للمسلمين بعد الرسول ﷺ وكان الأنصار يريدون الخلافة لهم.

وذهب أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، وحسموا القضية لصالح مكة، وبويع الصديق خليفة للمسلمين ، وكان الإمام على مشغولاً

بجهاز الرسول ، فلم يحضر أحداث السقيفة، ولكنه عرف أن الخلافة آلت للصديق، فبايعه فيما بعد.

ولكن بقى فى النفس النزوع إلى الخلافة . . والذين تشيعوا للإمام وآل البيت بعد ذلك، كان منهم المعتدلون. . وكان منهم الغلاة الذين ألحقوا بالإمام على صفات رفضها هو بل حاربهم على هذا المروق، الذى يرفضه الدين.

الذين تشيعوا للإمام رددوا قول الرسول عن الإمام : « أقضاكم على».

«أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى».

«لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق »

فقد كان الإمام على قريباً من الرسول لأنه ابن عمه من جهة ، ولجهاده فى سبيل الدين من جهة أخرى. . ولكن الرسول أوصى فى أثناء مرضه أن يخلفه فى إمامة الناس فى الصلاة الصديق ، ورأى الناس أن ذلك بمثابة ترشيح له بخلافته.

ونرى الأستاذ العقاد فى كتابه «عبقرية الإمام» يقول:

(ويلوح لنا أن النبى كان يحب علياً ويحببه إلى الناس ليمهد له سبيل الخلافة . . ولكن على أن يختاره الناس طواعية وحباً، لا أن يكون اختياره حقاً من حقوق العصبية الهاشمية، بل على أساس حكم القرآن، ومنهج الإسلام فى الشورى).

والذين ساروا فى تيار التشيع بعد ذلك. . غالى بعضهم بطريقة أساءت لهم. عندما آله بعضهم الإمام على.

يقول ابن خلدون:

(وقد حرق على بالنار من ذهب إلى تأليهه وسخط محمد بن الحنفية على المختار وصرح بلعنه والبراءة منه، وكذلك فعل جعفر الصادق رضى الله عنه).

ومن هنا نرى أن الصراع بين البيت الهاشمى ، وبين الأمويين كان صراعاً حاداً. . وأن الذين أيدوا آل البيت بعضهم كان حباً فى آل البيت. وأما الغلاة منهم فكانت وراءهم أهواء.

وهذه الأجواء التى كانت تسيطر على الحياة عندما عاش الإمام زيد، دفعت أهل المدينة إلى الابتعاد عن السياسة ، والتفرغ للعلم والعبادة، وكان على زين العابدين والد «زيد» متفقهاً غير راغب فى لعبة السياسة، حريصاً على العلم والعبادة، وأنشأ ابنه على ذلك. . فهو يعلم ماذا فعلت السياسة بأبيه الإمام الحسين ، وشاهد بعين رأسه أهوال كربلاء وهو مازال صبياً. . ومن هنا رفض أن يتجه إلى العراق بناء على طلب الشيعة، فهم قد خذلوا من قبل والده الإمام الحسين. . بل أنه أوصى ولديه «زيد» و «محمد الباقر» ألا يستجيبوا لأى دعوة من أهل العراق باسم مؤازرتهم للخلافة.

وتفرغ على زين العابدين للعبادة، مثله مثل أهل المدينة الذين ابتعدوا عن السياسة وهمومها.

وظل مع ابن أخيه جعفر الصادق يدرسان الأحاديث النبوية ويتفرغان للعلم وتلقيه عن علماء المدينة، وسرعان ما تاقت نفس الإمام «زيد» إلى أن يوسع مداركه العلمية، فاتجه إلى العراق ليعرف مختلف الاتجاهات وخاصة فى البصرة والكوفة.

لقد وطد الرجل حياته على أن يتفرغ للعلم، وأن يعرف ما يجرى فى الكوفة والبصرة من علوم ومناقشات. . ولكنه سخط على المظالم التى يشكو منها الناس، وسخط أكثر عندما كان يسمع عن سب الإمام علىّ على المنابر ، ولم تنج من ذلك حتى سيدة نساء أهل الجنة «فاطمة الزهراء».

ووجد أن الصمت حيال هذا كله يتنافى مع ما أمر به الشرع من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وليس من المعروف سب رابع الخلفاء الراشدين وابن عم رسول الله ﷺ. وليس من المعروف الإساءة إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ.

وحاول بعض أهل الكوفة إغراءه بالثورة. . ولكنه آثر أن يعيش للعلم وأن الوقت لم يحن بعد لذلك . . كما أنه رأى انحرافات البعض فالبعض سول له شيطانه أن يقول أن الوحى كان سينزل على الإمام علىّ ولكنه أخطأ!

والبعض سوّل له شيطانه أن يسب أبا بكر الصديق والفاروق عمر بن الخطاب وهما من هما حباً لله ولرسوله ومواقفهما فى خدمة الإسلام لا ينكرها إلا جاحد جاهل.

وما كان من الإمام «زيد» إلا أن حاول أن يرد هؤلاء المارقين إلى صحيح الدين، ولكنه عجز عن ذلك.. فقد سيطرت على عقولهم هذه الأفكار التى لا تمت إلى الإسلام بصلة.. بل هى خروج عن الإسلام.. وكان يحدثهم عن فضائل الشيخين الصديق وعمر، وأن الإمام علىّ قد بايعهما بالخلافة.. ولكنه كان يخاطب عقولاً قد تحجرت واستعصى عليها الفهم.

ورأى الإمام زيد صراع الآراء حول مرتكب الكبائر هل هو خالد فى النار، أم فاسق، يتلقى العذاب على قدر ذنبه؟

وهناك من يتحدث أن مرتكب الجريمة يرجع أمره إلى الله إن شاء غفر وإن شاء عاقب.

وأمام هذه الأفكار المتنافرة والمتصارعة كان الإمام «زيد» يرى كما يقول عبدالرحمن الشرقاوى:

اقتراف الكبيرة منزلة بين الكفر والإيمان ويسمى مرتكبها فاسقاً.. وهو مسلم لا كافر، ولكنه ليس مؤمنا، لأن المؤمن ولى الله ومرتكب الكبيرة يعصى الله، ثم أن الإيمان يقتضى الطاعة ومرتكب الكبيرة عاصى، ولكن لا يخلده الله فى العذاب، بل يعذبه الله بقدر ذنبه.

أما عن القضاء والقدر وحظ الإنسان من الجبر والاختيار، فالإمام زيد يعتبر الإنسان حرا مختاراً فيما يفعل وفيما يأخذ أو يدع من طاعة وعصيان، ذلك أن المعصية ليست قهراً من الله ولولا هذه الحرية لسقط التكليف.. ولسقط الثواب والعقاب فالإنسان إذن مسئول عما يفعل.. وبمقتضى حريته فى الاختيار يستحق الثواب والعقاب، ولكن على الإنسان أن يؤمن بالقضاء والقدر وهذا الإيمان لا يلغى

حرية الإنسان . . وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه سأل سارقاً : لما سرق؟ فقال: قضى الله على بذلك . . فأمر عمر بقطع يده وبجلده قائلاً:

- القطع للسرقة ، والجلد للكذب على اللّٰه.

والقدر هو تقدير الله فى علمه الأزلى، والقضاء هو حكمه التكليفى ، والإنسان حر أن يعمل أو لا يعمل وهو يحاسب بعمله.

ويقول الأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى أيضاً:

وكان الإمام زيد يوضح للناس ما روى عن الرسول ﷺ فقد شبه الرسول قضاء الله وقدره، بوجود الإنسان بين السماء والأرض لا يستطيع منهما فكاكاً وشبه حرية الإنسان فى العمل بحريته على الأرض، فلا السماء والأرض تمليان عليه ما يصنع!

وشرح موقف الإمام على بن أبى طالب من هؤلاء الذين يحسبون أن أعمال الإنسان هى قضاء لازم وقدر محتوم . . فقد قال الإمام على!

(لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد، والأمر والنهى، ولم تأت لائمة من الله لمذنب، ولا محمدة لمحسن، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء، ولا المسيء أولى بالذم من المحسن).

ورأى الإمام زيد فى القضاء والقدر شبيه برأى حسن البصرى الذى عرفه الإمام زيد فى العراق.

يقول حسن البصرى (من لم يؤمن باللّٰه وقضائه وقدره فقد كفر، ومن حمل ذنبه على الله فقد كفر).

كان للرجل إذن فقهه واجتهاداته ، متخذا من العقل وسيلة للفهم والتدبر والاستنباط فيما لا يوجد فى الكتاب أو السنة. لأن العقل هو الذى يرجع إليه فى الخطأ والصواب.

ثم أخذ الإمام فى الحديث عن الأمور العامة، وأهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكانت هذه الجرأة فى إبداء الرأى فى المسائل العامة مما أغضبت عليه الخليفة هشام بن عبدالملك، كما علم الخليفة بالتفاف الناس حوله، ولم يرق له ذلك، فكتب إلى والى العراق: (أمنع الناس من حضور مجلس زيد فإن له لساناً أقطع من السيف وأحد من الأسنة وأبلغ من السحر).

وعندما رأى الخليفة أن والى العراق خالد بن عبدالله القسرى معجب بالإمام زيد عزله وأمر بسجنه وولى بدلاً منه يوسف بن عمر الثقفى.

بل أن الخليفة هشام استدعاه يوماً إلى قصره، وقابله مقابلة خشنة وطرده من قصره، ولم تعجبه ردوده عليه.

فخرج الإمام زيد وهو يقول للخليفة :(أخرج . . ثم لا ترنى إلا حيث تكره).

ويذكر الطبرى أنه (وقد اجتمع إليه «إلى زيد» جماعة من رؤوسهم فقالوا: رحمك الله، ما تقول فى أبى بكر وعمر؟

فقال: رحمهما الله وغفر لهما . . ما سمعت أحدا من آل بيت يتبرأ منهما . .

قالوا : فلم تطلب إذن بدم أهل هذا البيت؟ إلا أن وثبا على سلطانكم فنزعاه من أيديكم؟

فقال: إن أشد ما أقوله فيما ذكرتم انا كنا أحق بسلطان رسول الله من الناس أجمعين وأن القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك عندنا لهم كفرا، وقد ولوا فعدلوا بين الناس وعملوا بالكتاب والسنة.

قالوا: فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو إلى قتال قوم ليسوا لك بظالمين.

فقال: إن هؤلاء ليسوا كأولئك إن هؤلاء ظالمون لى ولكم ولأنفسكم - وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وإلى السنن أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ، فإن أنتم أجبتمونا سعدتم، وإن أنتم أبيتم فلست عليكم بوكيل.

وأخذ الناس يلتفون حوله ونبه الخليفة واليه على العراق بما يحدث ، وبما نقله إليه الناس ، فأخذ يقبض على أتباع الإمام «زيد» . . وأخذ الناس ينفضون من حوله خوف السلطة، ولم يعد يلتف حوله إلا مائتان بعد أن كانوا أربعين ألفا . . وكان لابد من قتاله واجهوه بجيش كبير استطاع هذا الجيش أن يقضى عليه وقد أصاب الإمام سهم فى جبهته أدى إلى موته . .

وعندئذ تقدم بعض أصحابه ودفنوه فى ساقية ، غير أن الأمويين أخرجوه وأخذوا رأسه ونصب على باب دمشق ، وعندما مـات هشام وتولى بعده الوليـد ابن عبدالملك أمر بإحراقه. وكان قتله سنة ١٢٢ هـ . . وقال البعض الآخر أنهم نبشوا قبره ومثلوا بجثمانه وصلبوه على جذع نخلة! .

وقد روى أبو فرج الأصفهانى فى مقاتل الطالبيين أن الإمام أبا حنيفة كان ينصر زيداً وأنه أرسل إليه يقول:

(إن لك عندى معونة وقوة على جهاد عدوك فاستعن بها أنت وأصحابك فى الكراع والسلاح) وأنه بعث بمال إلى زيد فقبله منه.

استشهد الإمام زيد وخلفه جعفر الصادق.



الإمام الأعظم
أبو حنيفة النعمان

- اعتمد فقهه على الرأى والقياس بعد الكتاب والسُّنة
- رفض القضاء فطافوا به فى الأسواق وضربوه بالسياط.!
- مات بعد أيام من دخوله السجن!

الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان

ولد أبو حنيفة سنة ٨٠ هـ من أسرة تنتمى إلى أصل فارسى وعاش سبعين عاماً. . أغلبها فى العصر الأموى والباقى فى العصر العباسى. وشاهد صوراً مختلفة من الحياة فى كلا العصرين. . وسمع عن الفتن التى حدثت كما أنه كان عصر يمتزج بالفرق الكلامية، وفيه الترف وفيه الزهد. . وفى نفس الوقت ازدهرت عظمة الفتوحات الإسلامية فى كل مكان سواء فى آسيا حتى وصل المسلمون إلى أسوار الصين ، أو فى الشمال الأفريقى الذى خضع بالكامل للحكم الأموى، ثم دخلوا أسبانيا وجنوب فرنسا.

وعلى جانب آخر وجد فى هذا العصر الكثيرون من الذين ينافقون السلطان حتى ينالوا نصيباً من الدنيا وما أكثر الذين عاشوا فى هذا العصر وعانوا من عبث العابثين والمنافقين . . وما أكثر الذين آثروا العزلة والابتعاد عن أضواء السياسة هرباً وخوفاً من أن تصيبهم الفتن، وتعكر صفو أيام حياتهم.

فى هذا العصر عاش الإمام أبو حنيفة إنسان بالغ الذكاء. . قوى الحجة . . جميل الصوت . . طويل القامة. . أسمر. . عطوفاً على الفقراء والمساكين شديد الحلم. . حباه اللّٰه بالثراء فقد كان يتاجر فى الأقمشة الحريرية كأبيه.

وتعلم من مهنته تلك أمور التجارة ، وهذا ما نفعه عندما تعمق فى دراسة الفقه وتحدث عن المعاملات فى الإسلام فكانت له اجتهاداته المميزة.

ولفرط ذكائه استوعب الدروس التى كان يتلقاها من شيوخ العلم فى البصرة والكوفة. . وقد أحب علم الكلام واستوعبه ثم وجد أن طريقه هو الفقه. . فتفقه فى الدين. . وجلس إلى كبار علماء عصره، ونفعته ملكته وذكاؤه فامتص علوم العصر، حتى أصبح له وجهة نظر فى مختلف الأمور من خلال تعمقه فى دراسة كتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام. . وكان فقهه يعتمد على الرأى.

ومما يروى عن أمانته أن امرأة جاءت لتبيع له ثوباً طلبت فيه مائة درهم.

فقال لها الإمام: هو خير من ذلك.. فزادات مائة.. ثم زادت حتى طلبت أربعمائة.

فقال لها: هو خير من ذلك! فقالت: اتهزأ بى؟ فقال لها: هاتى رجلا يُقيمه فجاءت برجل فقيمه بخمسمائة!

بل بلغ من أمانته أنه طلب رجلاً لمشاركته فى تجارته، حتى يتفرغ للعلم.. وذات يوم أخبر شريكه أن هناك ثوباً فيه بعض العيوب.. فإذا باعه فعليه أن ينبه المشترى إلى هذا العيب، وباع الرجل الثوب دون أن يخبر المشترى بما فيه من عيوب فما كان من أبى حنيفة إلا أن أنفصل عن شريكه وتصدق بثمن الثوب عندما لم يتمكن من العثور على صاحبه.. شخصية بالغة الأمانة.. وكما تحدث الناس عن سمو أخلاقه وفضائله تحدثوا عن صبره على الذين يكيدون له.. حتى أن أحدهم شتمه فى المسجد فخرج والرجل خلفه يكيل له السباب حتى وصل إلى باب منزله وقال له الإمام:

- هذه دارى فأتم كلامك حتى لا يبقى عندك شىء أو يفوتك سباب فأنا أريد أن أدخل دارى.

وقد وصفه تلميذه أبو يوسف للرشيد بقوله:

«كان والله أبو حنيفة شديد الذب عن محارم اللّه، مجانبا أهل الدنيا.. فى دنياه طويل الصمت.. دائم الفكر.. ولم يكن مهذارا ولا ثرثارا.. إن سئل عن مسألة كان عنده علم بها أجاب عما سمع بما ثبت عنده.. ما علمت يا أمير المؤمنين رجلاً أكثر منه اشتغالاً بدينه عن نفسه وعن الناس.. لا يذكر أحد إلا بخير»..

فقال الرشيد: هذه أخلاق الصالحين..

وقال عنه الإمام الشافعى:

- ما قامت الناس عن رجل أعقل من أبى حنيفة.

وكان الإمام يقرأ القرآن الكريم كثيراً وكثيراً أيضاً ما صلى الفجر بوضوء العشاء.

ومع كل هذه الفضائل التى كان يتميز بها الإمام، فقد كان له خصوم .. وخصومه كانوا من بعض الفقهاء الذين أوغر صدورهم التفاف الناس حوله دونهم كما خاصمه الحكام لأنه كان يقول الحق، حتى لو أغضبهم وكان حبه لآل البيت دافعاً لأن يغضب عليه خلفاء بنى أمية وبنى العباس الذين عاصرهم.

وكان منهجه فى الفقه بعد الكتاب والسنة القياس وقد وضح ذلك فى وصيته لنوح بن مريم عندما ولى نوح القضاء فى (مرو) التى قال له فيها:

(أن أبواب القضاء لا يدركها إلا العالم النحرير.. فإذا أشكل عليك شىء من ذلك فارحل إلى الكتاب والسنة والإجماع، فإن وجدت ذلك ظاهرا فاعمل به، فإن لم تجده ظاهرا فرده إلى النظائر ، واستشهد عليه بالأصول، ثم أعمل بما كان إلى الأصول أقرب وبها أشبه).

كان القياس عند أبى حنيفة من أهم مصادر فقهه.. والقرآن الكريم فيه ذلك مثل قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾

[النساء: ٨٣]

وأعلى أبواب الاستنباط هو القياس.

ويروى أحمد أمين فى كتابه (ضحى الإسلام).

إن من الأمور الظاهرة فى فقه أبى حنيفة الحيل الشرعية، وقد أصبحت فيما بعد باباً واسعاً من أبواب الفقه فى مذهب أبى حنيفة وغيره من المذاهب.. وإن كانت فى مذهب أبى حنيفة أظهر.

ويقول : وقد رويت عن أبى حنيفة مسائل فى هذا الباب، أكثرها من باب الإيمان والطلاق، ومنها يظهر أن سكان العراق تفننوا فى الأيمان والطلاق تفننا عجيباً، وكان يستفتون الأئمة فى هذه الأيمان العجيبة التى يوقعونها.

فيحلف (الأعمش) بطلاق امرأته إن اخبرته بفناء الدقيق أو كتبت به أو راسلته أو ذكرت لأحد ليذكره له، أو أومأت فى ذلك فتسأل امرأة أبا حنيفة ، فيحتال لمخرج لهذا فيقول لها:

- إذا انتهى الدقيق فشدى جراب الدقيق على إزاره أو ثوبه وهو نائم، فإذا أصبح أو قام من الليل علم خلاء الجراب وفناء الدقيق.

ويحلف آخر ليقربن امرأته نهاراً فى رمضان ، فيفتيه أبو حنيفة أن يسافر بها فيقربها نهاراً فى رمضان.

ويحلف رجل وقد رأى امرأته على السلم فيقول: أنت طالق ثلاثاً إن صعدت وطالق ثلاثاً إن نزلت؟

فيفتيه أبو حنيفة أن تقف المرأة على السلم ولا تصعد ولا تنزل ويحتال جماعة يحملون السلم بالمرأة فيضعونها على الأرض!!

ويسأله رجل فيقول: لى ولد ليس لى غيره فإن زوجته طلق، وإن سريته أعتق، وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة؟

فقال أبو حنيفة: اشتر الجارية التى يرضاها هو - لنفسك - ثم زوجها منه فإن طلق رجعت مملوكتك إليك.. وإن أعتق أعتق ما لا يملك.. إلى أمثال ذلك.

فنرى من مجموع هذا أن الحيل التى أفتى بها أبو حنيفة ليست من نوع التحايل على إبطال الحق أو أكل الأموال بالباطل ونحو ذلك إنما هو استخراج فقهى للخروج من مأزق مع عدم التعدى على أحد فى ماله ونفسه.

ويقول أحمد أمين:

مما لا شك فيه إن أبا حنيفة خرج على الناس بمذهب جديد.. فيه حرية للعقل بكثرة استعمال الرأى والقياس، وبما استتبع ذلك من كثرة الفروع ورجوعها إلى أصول، وبمقدرة فائقة فى الاستنباط وبشجاعة فى مواجهة المسائل حتى الفرضية منها والإفتاء فيها ، ويتعرف وجوه الحيل فى المسائل، فى الحدود التى ذكرناها، وبتقريب الفقه إلى الأذهان حتى قال الجاحظ:

(وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يعد فقيهاً ولا يجعل قاضياً، فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة، ويحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين، حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال وبالحرى لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان).

وانقسم حول فقهه كثيرون بين مؤيد ومعارض، ومهما قيل فإن هذه الحركة القوية ، وهذا النزاع الشديد بين أصحاب الرأى والحديث، رقى الفقه فى هذا العصر رقياً عظيماً ، وفتق الأذهان واستخرج منها أحكاماً ونظريات هى خير نتاج العصور الإسلامية على حد تعبير أحمد أمين.

لقد أصبح أبو حنيفة أعظم الفقهاء حتى أطلق عليه تلاميذه . . الإمام الأعظم.

وتمضى الأيام . . ويحاول الخليفة أبو جعفر المنصور أن يوليه القضاء، ولكن أبا حنيفة رفض منصب القضاء. .

أو كما يقول المستشار عبدالحليم الجندى فى كتابه (أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام) وهو يتحدث عن عرض الخليفة القضاء على أبى حنيفة ورفض أبى حنيفة، وما تلا ذلك من أحداث.

«وأصر إمام المسلمين وأصر أمير المؤمنين وحلف أبو جعفر ليفعلن فحلف أبو حنيفة ألا يفعل، وقال: إنى لا أصلح للقضاء قال الربيع بن يونس الحاجب: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف؟

قال أبو حنيفة : أمير المؤمنين أقدر على كفارة إيمانه منى.

فأمر به أبو جعفر إلى الحبس فى الوقت ثم داعبه.

قال: أترغب عما نحن فيه؟

قال : أصلح الله أمير المؤمنين لا أصلح للقضاء.

قال الخليفة : كذبت .

فانطلق أبو حنيفة يقول:

- لقد حكم على أمير المؤمنين أنى لا أصلح للقضاء لأنه ينسبنى إلى الكذب.. فإن كنت كاذباً فلا أصلح .. وإن كنت صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح.

وطفق أمير المؤمنين ينازله فى الأمر وهو يقول :

- اتق الله ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله، والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات لاخترت أن أغرق ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك.. وكيف يحل أن تولى قاضيا على أمانتك وهو كذاب!.

قيل وداروا به فى الأسواق أياماً كثيرة على أن يقبل القضاء فأبى وردوه إلى السجن.

وقيل إن الوزراء نصحوا أبا جعفر بإخراجه من السجن وجعله فى منزله ومنعه من الفتوى للناس والجلوس لهم والخروج من المنزل فكانت حالته إلى أن مات بعد قليل من الزمان، ويقال بعد أيام معدودات.

وقالوا: إنه ضرب مائة سوط أو مائة وعشرة وثلاثين سوطاً حتى سال الدم على عقبيه!!

فقال : عبدالرحمن بن على عم الخليفة للخليفة:

- سللت على نفسك مائة ألف سيف.. هذا فقيه أهل العراق فقيه أهل الشرق فأمر له أبو جعفر بثلاثين ألف درهم فكان بكل سوط ألف درهم ، فلما وضعت بين يديه رفضها.

فقيل له : لو تصدقت بها ..

قال : أيوجد عندهم الحلال.

هكذا حبس الرجل الذى ظلت الحرية نصف قرن اسما هو مسماه، والذى عاش سبعين عاماً يصنع الحرية بيديه صنعاً، ويخلقها فى تلاميذه وفى تعاليمه. حبس الجسم من ذلك القلب الذى لم يحبس نوره أحد. . ولن يحبسه قيد أو حقد.

أن محابس هذا العالم وقيوده للناس والولاة ولكنها ليست للعباقرة.

ويحلل المستشار عبدالحليم الجندى محنة الإمام الأعظم بقوله:

لكن ما هال أبا جعفر من رفض أمره جعل حقا على أبى حنيفة أن يصرعلى الإباء.

فالدولة التى لا تأذن بأن (يخضع السلاح للوشاح) كما يقول المثل اللاتينى، ويضرب فيما القضاه، هما أحرى الوشاح وهم العلماء ورجال القضاء «وإن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده» ، كما قال عليه الصلاة والسلام.

رفض أبو حنيفة القضاء بين يدى أبى جعفر وبين يدى ابن هبيرة وضرب بالسياط وكانت أمه إلى جوارة تقول له:

– يا نعمان إن علما ما أفادك غير الضرب والحبس حقيق بك أن تنفر منه.

فأجابها:

– يا أماه لو أردت الدنيا لوصلت إليها، ولكن أردت أن يعلم الله أنى صنعت العلم ولم أعرض نفسى فيه للهلكة.

وأدخل السجن فلم يقبل أن يأكل من طعام الخليفة وبعث إلى ولده حمادا يقول: قد علمت أن قوتى فى الشهر درهمان من سويق (الناعم من الحنطة أو الشعير) وقد حبسته عنى فعجله. . ومكث فى السجن أياماً معدودات ثم صعدت روحه إلى بارئها.

هكذا تعدى أبو جعفر الإلحاح إلى الإكراه، وتعدى الإكراه النفسى باليمين إلى الإكراه الجسدى بالسجن، وتعدى ذلك كله إلى التعذيب والضرب فأى جناية تلك

يستحق بها عذاب الله وحساب التاريخ . . ومهما قيل عن نبالة الغاية فإنها لا ترخص عنه الوصمة والمذمة .

فإذا كان الضرب أو السجن أو الألم النفسى والجسدى قد سبب موت الشيخ وهو فى السبعين فيا هول ما يلقى به ربه أبو جعفر .

لقد مات الإمام الأعظم بعد تعذيبه وظل اسمه بما قدم للفكر الإسلامى خالداً، وسيظل إلى يوم الدين بما قدم من اجتهاد أفاد المسلمين منه فى كل العصور . . وطوت صفحات النسيان أبا جعفر سيظل فقهه نور هداية لكل من يريد أن يعرف أمور دينه على وعى وبصيرة . . وسيظل الناس يرددون كلمته الخالدة: كن من السلطان كما أنت من النار، تنتفع منها، وتتباعد عنها، ولا تدن منها فإنك تحترق ! !

كلمات عظيمة لإمام عظيم فهم أمور الدنيا كما فهم أمور الدين ومضى الرجل إلى رحاب ربه، وبقيت قصة حياته وفقهه، وساماً على هام السنين .



الإمام

مالك بن أنس

- عاشق المدينة التى لم يغادرها إلا لحج أو عمرة!.
- فقهه انتشر فى أنحاء العالم الإسلامى.
- ضربوه بالسياط وخلعوا كتفه!



الإمام مالك بن أنس

الإمام مالك بن أنس أحد الأئمة الأربعة الكبار.. اعتنق مذهبه الملايين فى أنحاء العالم الإسلامى.. عاش حياته كلها فى المدينة، فقد عشق المدينة التى عاش فيها الرسول ﷺ بعد الهجرة وصحابته الكرام، ولم يخرج من هذه المدينة إلا للحج والعمرة.

وقد عرف الفقر فى أول حياته، كما عرف حياة الثراء عندما أصبح إماماً كبيراً، وأصبح له أعطيات من بيت المال.. وكان يلبس أجمل الثياب كما كان يعتنى بمأكله وملبسه.. وكان طويلا أشقر شديد البياض، أصلع الرأس، طويلا.. مهيباً.. ومع علمه الغزير لم يسلم من اضطهاد الولاة.

ولد مالك بن أنس سنة ٩٣هـ، وقال البعض الآخر سنة ٩٧هـ وتوفى سنة ١٧٩ هـ - .. وقد حفظ القرآن صغيراً، وأخذ العلم على علماء المدينة فى المسجد النبوى الشريف، وحفظ كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة، فقد كانت المدينة بحكم وجود الرسول والصحابة بها على علم بسنة النبى عليه الصلاة والسلام، وأفعال الصحابة، وكانت مدرسة المدينة تختلف عن مدرسة العراق، مدرسة المدينة تتمسك بالسنة متمثلة فى أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام. ومدرسة العراق تتمثل فى الرأى.

وقيل عن لسان (ربيعة) وكان أحد أساتذة مالك وقد ذهب وعاد من العراق.. أنه قال عقب عودته من العراق إلى المدينة عندما سئل عما رأى فى العراق؟

قال:

- رأيت قوماً حللنا حرامهم، وحرمنا حلالهم، وتركت بها أكثر من أربعين ألفاً يكيدون هذا الدين.

- وكان أهل المدينة يلجأون إلى الرأى عندما لا يجدون النص.

كان من الطبيعى أن يلجأ أهل المدينة إلى النصوص حيث الحياة كانت بسيطة غير معقدة، بعكس العراق التى تداخلت فيها الحضارات المختلفة، فكان لابد من استخدام العقل لاستنباط القواعد التى لا تتنافى مع الكتاب والسنة.

وكان من رأى الإمام مالك بعد أن درس على فقهاء عصره فى المدينة، وتبحر فى العلم والحديث، وأصبح يُعلم الناس أمور الدين.. كان يقول:

«لايؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ من سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به».

وقد ظل الإمام يجمع (الموطأ).. وهو يحوى الأحاديث النبوية الشريفة لعدة سنوات، ويحذف منه ما تبين عدم صحته.

كان الإمام إذن يعتمد على أهل المدينة على أساس أن المدينة كانت دار الهجرة للرسول الخاتم، ونزل بها القرآن فما أجمع عليه أهل المدينة لا اختلاف عليه، ولأنهم يعرفون الناسخ والمنسوخ.

ومع أن الإمام مالك كان يؤمن بعمل أهل المدينة وقول الصحابة، فإنه فى نفس الوقت كان لا يغفل باب الرأى تماماً، فأصول مذهبه تعتمد على المصالح المرسلة.

وكان كتابه (الموطأ) الذى جمع فيه الأحاديث النبوية الشريفة، من أهم الكتب فى الفقه والحديث.

وعندما حاول المنصور أن يحمل الناس على الموطأ قال له الإمام مالك:

«لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث وردوا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق لهم، وعملوا به ودانوا، وقد أصبح ردهم عما اعتقدوه شديداً.. فدع الناس وما هم عليه».

قال يحيى بن معين:

- كان مالك من حجج الله تعالى على خلقه، إمام لا يبلغ الحديث إلا صحيحاً ولا يحدث إلا عن ثقات الناس.

وقال الإمام الشافعى عنه:

- إذا جاءك الحديث عن مالك فشد به يديك.

كان الإمام بن أنس عفيف النفس، عرفه إمام مصر الليث بن سعد عندما ذهب إلى الحج ومر بمسجد الرسول ﷺ ، وسمع فيه لعلماء المدينة، وصادق الإمام مالك وهو مازال فى مرحلة التعليم ، وعرف أنه كان يعيش حياة زاهدة.. وأنه لم يكن يملك الكثير فصادقه، وكان الإمام الليث من أكبر علماء مصر، بل يرى البعض ومنهم الإمام الشافعى أنه كان أفقه من مالك لولا أن تلاميذه لم يسجلوا له علمه ، فأضاعوه بعكس الإمام مالك الذى دون علمه فى «الموطأ».

وكان الإمام الليث ثريا واسع الثراء، فكان يرسل للإمام مالك ما يحتاج إليه من مال، إلى أن أصبح للعلماء الحق فى أعطيات بيت المال حتى يتفرغوا للعلم .. وكان الإمام من الذين طالبوا أن يكون للعلماء نصيب فى بيت المال.. وقد تحقق ذلك فيما بعد، وبالتالى كف عن البحث عن المال، وتفرغ للعلم .. وأصبح يلبس أجمل الثياب ، ويأكل أطيب الطعام ، ويفرش بيته بأجمل الأثاث، وفى نفس الوقت كان كثير العطف على الفقراء والمساكين ويقدم لهم المال.

وكان الإمام مالك لا يحب الغيبة والنميمة ويكره من يتسم بهما ، فهو القائل:

- «كان عندنا بالمدينة قوم لا عيوب لهم، فتكلموا فى عيوب الناس، فصارت لهم عيوب، وكان عندهم قوم لهم عيوب، فسكتوا عن عيوب الناس فنسيت عيوبهم».

كان الإمام لا يقول إلا الصدق .. وكان متواضعاً لا يدعى أنه يعلم كل شىء بل أنه كان يقول المسألة ليس متيقنا من الإجابة عنها أنه لا يعلم، وليس مثل الكثيرين من أشباه العلماء الذين يفتون بما لا يعلمون..

كان يؤمن إيماناً راسخاً بأمانة العلم، حتى أن رجلاً جاء يستفتيه فى مسألة فقال له: لا أُحسنها.

فقال له الرجل:

- قد ضربت إليك من كذا وكذا لأسألك عن هذا القول وتقول لى : لا أحسنها. . ماذا أقول لأهلى:

قال له الإمام :

- قل لهم سألت مالكا فقال لا أحسنها.

وعلى حد قول أحمد أمين، فإن كانت مدرسة أبى حنيفة وقد وسعت الفقه بكثرة الفروع، وبما يستلزمه ذلك من رأى وقياس واستحسان ، وبمواجهة المشاكل المعقدة التى قدمتها لها المدينة الضخمة، والتى قدمتها لها بقايا الأمم الممتدة فى العراق من أشوريين وكلدانيين وفرس وغيره، فإن مدرسة مالك قد أثرت فى الفقه بما نقلت من أحاديث كانت وافرة فيها بحكم قيام الرسالة فيها، وكثرة الصحابة بها، وبما قدمت من أشكال وأوضاع تداولها سكان المدينة جيلاً بعد جيل، وأهل المدينة فى ذلك أوثق. . فقد شهد الأولون منهم النبى ﷺ يتوضأ على نحو خاص، ويصلى على نحو خاص، وعرفوا مقدار المكاييل والموازين التى كانت تستعمل لعهده فنقلوا ذلك كله إلى من بعدهم من طريق الاخبار أحياناً، ومن طرق التوريث أحياناً أخرى، وتسلسل ذلك إلى مالك ومدرسته، ثم كان من أصحاب المذهبين من ينتفع بمزايا كل الآخر، فيرحل محمد بن الحسن الحنفى إلى المدينة يمكث فيها ثلاث سنين ويروى الموطأ ، ويعود إلى العراق مزودا بالآثار، ويذهب أسد بن الفرات ويمكث فى العراق طويلاً، ويعود إلى مصر والقيروان مزودا بكثرة الفروع، وبذلك وأمثاله تأثرت المدرستان، وتقارب المذهبان.

لقد عاش الإمام مالك بعيداً عن السياسة لا يخوض فيها ولا يتحدث عنها، وكان يرى أفضلية أبى بكر وعمر وعثمان عن الإمام على الذى اعتبره واحداً من الصحابة.

وكان لهذا السبب قريباً من الأمويين، لأنه لم يكن يناصر الإمام على بن أبى طالب، كما كان قريباً للعباسيين لنفس السبب.

فقد آثر أن يبعد عن السياسة، وهو قد علم ما جرته السياسة على من يسير فى تيارها إلى ما لا يحمد عقباه. . ويعرف ما حدث لآل البيت بسبب السياسة.

ولكن مع ذلك لم يسلم من السلطة وأصيب بمحنة وضرب بالسياط وخلعت كتفه!!

- كيف.

- كان يشرح الحديث الشريف: «ليس على مستكره يمين».

وكان يضرب مثلا أن من طلق مكرها لا يقع منه طلاق.

وما قاله الإمام يتفق مع المنطق والدين.

ولكن حدث أن ثار على الخليفة المنصور محمد النفس الزكية أحد أحفاد الإمام الحسن لأنه أخذ البيعة لنفسه بالقوة، وبالتالى بايعه الناس على كره وتطبيقاً لهذا الحديث الذى شرحه الإمام مالك «ليس على مستكره يمين» أن خرج البعض مؤيدين حفيد الإمام «الحسن» على أساس أنهم استكرهوا بإعطاء البيعة للخليفة المنصور.

ووجد الخليفة إن الإمام بشرحه هذا الحديث للناس يؤلب الناس على الخلافة، فأصدر أوامره لحاكم المدينة أن يأمر الإمام مالك أن يكف عن ترديد هذا الحديث.

ولكن الإمام مالك لم يمتنع. . لا لأنه يريد من الناس الثورة على العباسيين، ولكن أمانة العلم تدفعه إلى قول هذا الحديث وشرحه.

فما كان من والى المدينة أن أمر رجاله بضرب الإمام مالك بالسياط، وجروه على الأرض حتى انخلع كتفه.

وحددوا إقامته فى منزله لا يغادره!!.

وعندما استقر الأمر للمنصور بقضائه على ثورة النفس الزكية وأتباعه، أمر المنصور والى المدينة أن يسترخى الإمام مالك ويطلق سراحه، وحدث أن جاء الخليفة

إلى الحج، وأثناء زيارته لمسجد الرسول ﷺ فى المدينة استقبل الإمام مالك واعتذر له عما حدث وقال له:

- أنا ما أمرت بالذى كان ولا عملته.. إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم، وإنى أخالك أماناً لهم من عذاب، ولقد رد الله بك عنهم سطوة عظيمة فإنهم أسرع الناس إلى الفتن وأخذ الخليفة يسترضيه حتى رضى.. كما أقنعه أن يضع كتاباً فى الفقه وأقنعه بذلك فعكف على كتابه الموطأ حتى أتمه.

وقد روى البعض عنه أنه سئل عن الخارجين على الخلفاء هل يجوز؟

وأجابهم:

- إن خرجوا على مثل عمر بن عبدالعزيز فهم يكن مثله؟

قال: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما.

وقيل أن هذه الكلمة قد وصلت إلى سمع والى المنصور، وكانت سبباً فيما تعرض له من محنة.

ويقول عبدالرحمن الشرقاوى عن فقه الإمام مالك أنه ذاع فى كل الأمصار والأقطار وكان فى هذا الفقه ما يحمل له عناصر التجديد، كالأخذ بمراعاة تحقيق المصلحة إن لم يوجد نص يبيح أو يمنع، وهو نظر أخذه من فقه الإمام جعفر الصادق بإعماله العقل فى استنباط الحكم حيث لا يكون نص، وحكم العقل يقضى بالبحث عما يجلب المنفعة ويبعد الضرر تحقيقاً لمقاصد الشريعة.

وقد نما فقه مالك واتبعه كثير من المفكرين والمجتهدين والفقهاء من بعده منهم فيلسوف الأندلس ابن رشد.

غير أن بعض معاصرى مالك عارضوه معارضة عنيفة وخالفه ونقده بعض أصحابه منهم الليث بن سعد فقيه مصر، وتلميذه الشافعى وقد أرسل إليه صاحبه الليث بن سعد رسالة طويلة ذكره فيها بأن عمل المدينة لم يعد سنّة بعد ولا يمكن اتباعه بعد عصر الرسول والخلفاء الراشدين.. فالصحابة خرجوا من المدينة بعد مقتل عمر، وتفرقوا فى الأمصار وبثوا فيها فقههم.

لقد كان أوائل أهل المدينة فى زمن الرسول عليه السلام هم خير الأوائل، أما أواخرهم فى زمن مالك فلم يعودوا كذلك بعد. . ولم ينس الإمام الليث بن سعد فقيه مصر أن يسأل صاحبه الإمام مالك بن أنس إن كان فى حاجة إلى مال.

ومهما يكن من أمر الخلاف بين مالك وتلاميذه فقد عارض مذهب الإمام وتجدد حتى لقد أخذت منه قوانين الأحوال الشخصية فى مصر فى مطلع القرن الميلادى حتى القوانين الأخيرة ١٩٧٩م من هذا المذهب.

على أن الذين خالفوا الإمام مالك بن أنس من صحبه وتلاميذه وكانوا يحملون له كل الإجلال والتقدير والاحترام. .

قال عنه تلميذه الشافعى:

إن ذُكر الحديث فمالك هو النجم الثاقب أما صاحبه الليث بن سعد الذى صاحبه عمراً طويلاً، وراسله وواصله بالمال والهدايا، واختلف معه آخر الأمر فقد قال عنه أثناء الخلاف. . وعلى الرغم من الخلاف . . مالك وعاء العلم.

وظل الإمام مالك نور هداية للناس فى عصره وظل نور هداية للناس من بعده. . ومازال مذهبه يعتنقه الملايين من البشر فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه. . وسيظل مذهبه منارا لكل من يريد أن يعرف أمور دينه . . رغم أنه وسد الثرى فى ١٧٩ هـ ، ودفن بالبقيع.



الإمام

الليث بن سعد

- قال عنه الشافعى أنه أفقه من مالك!

- عندما هدموا منزله .. أصيب الأمير بالفالج.!



الليث بن سعد

الليث بن سعد هو أحد أعلام الفقه التى أنجبتهم مصر . . فقد كان محدثاً جليلاً ، وفقيهاً متعمقاً فى الفقه ، حتى أن الإمام الشافعى قال عنه :

«كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه» .

وقد ربطت بين الليث بن سعد والإمام مالك صداقة امتدت طويلاً ، رغم اختلافه مع الإمام مالك فى بعض الأمور الفقهية ، وكان أيضاً يصل الإمام مالك ببعض المال لأن الإمام الليث بن سعد كان شديد الثراء ، ورغم اختلافهما فى بعض الأمور الفقهية ، فإن هذا الاختلاف لم يفسد الود بينهما . . وقد توثقت هذه العلاقة عندما تعرف عليه الإمام الليث عند زيارته الأراضى الحجازية للحج ، وأعجب كل واحد منهما بالآخر .

وقد ولد الليث بن سعد فى قرية قلقشندة بالقرب من طوخ الحالية فى محافظة القليوبية سنة ٩٤هـ فهو مصرى المولد من أصل عربى .

قال يحيى بن بكير :

– ما رأيت أحداً أكمل من الليث ، كان فقيه النفس ، عربى اللسان ، يحسن القرآن والنحو ، ويحفظ الحديث والشعر ، حسن المذاكرة .

وقد مات يوم الجمعة رابع عشر شعبان سنة ١٧٥هـ ، وما بين يوم ميلاده ويوم موته تاريخ حافل بالعطاء والثقافة الرفيعة ، والأخلاق الراقية ، والكرم والسخاء الذى تحلى به هذا الإمام الجليل .

فرغم ثرائه الكبير . . كان كثير العطاء للناس ، محباً للفقراء والمساكين ، يعطف على ذوى الحاجة من الناس حتى قيل أنه لم يخرج الزكاة قط ، لأن أمواله كان

يوزعها على مدى العام على كل من يحتاج إلى هذا المال، فلا يبقى النصاب الذى يوجب عليه الزكاة!

ومع كل ما كان يتمتع به من علم وفقه، ورغم أنه كان كما قلنا كثير العطاء.. أحبه الناس لسخائه.. ولعلمه.. ولكرمه.. ولحبه للعطاء.. فلم ينج من محنة ألمت به على يد أمير مصر الوليد بن رفاعة، رغم قرابته له، لأن كلاهما - كما يقول الرواة - ينتمى إلى العدنانية.

فقد حقد عليه هذا الأمير بلا مبرر، وهدم داره بقلشندة!

فما كان من الليث بن سعد أن عاد فبنى هذه الدار لأنه كان يحب أن يذهب إلى مهبط رأسه بين الحين والحين، ولكن الأمير هدمها للمرة الثانية، وعندما بناها الليث للمرة الثالثة، هدمها هذا الأمير، مما جعل الإمام الليث بن سعد يشعر بالحزن الشديد، والألم من هذا الاضطهاد والذى ليس له ما يبرره سوى العناد، وسوى أن هذا الحاكم المتسلط يريد أن يغيظه ويكيد له.. ولكن هذا الحزن العميق الذى كان يشعر به هذا الإمام سرعان ما ذهب عندما رأى فى منامه من يقول له: يا ليث ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ۝ ﴾ [**القصص**].

وتروى الكتب التى تحدثت عن الإمام الليث بن سعد أن هذا الأمير قد أصيب بالفالج، ومات بعد ذلك، وقد ندم على ما اقترف فى حق هذا الرجل الذى لم يقم بإيذاء أحد، وليس هناك مبرر لما فعله به.

وكان الليث فى الرابعة والعشرين من عمره.

بل أن هذا الأمير كتب عندما مرض وصيه.. أو كما يقول يحيى بن بكير:

« كتب الوليد بن رفاعة وهو أمير مصر فى وصيته، قد أسندت وصيتى لعبدالرحمن بن خالد بن مسافر إلى الليث بن سعد، وليس لعبد الرحمن أن يفتأت على الليث فإن له نصحا ورأياً».

والذين تحدثوا عن الإمام الليث بن سعد تحدثوا عن ذكائه وفقهه وعلمه الغزير منذ أن اتجه إلى العلم والفقه . . فبعد أن حفظ القرآن الكريم، ودرس علوم الدين، عن كبار رجال عصره، كما أخذ عن نافع مولى ابن عمر ويروى عنه أنه عندما دخل على نافع سأله :

- من أين ؟
- من أهل مصر .
- ممن؟
- من قيس
- ابن كم؟
- ابن عشرين .
- أما لحيتك فلحية ابن أربعين .

ومن البلاد التى زارها الإمام الليث العراق، وزيارته للعراق تستدعى سرد بعض الأحداث التى تدل على ذكاء الإمام الليث يوردها الدكتور أحمد عمر هاشم فى دراسته عن الليث بن سعد ، فيقول :

وفيما يتعلق برحلته إلى العراق نحب أن نذكر حادثتين نترك أمر التصديق بهما إلى القارئ، ونذكر أن الأسباب التى دعتنا إلى ذكرهما هى :

١ - طرافة هاتين القصتين .

٢ - المشكلة فيهما فى غاية التعقيد، وقد استعصت على كثير من الفقهاء .

٣ - الحل فيهما فى غاية التعقيد، وقد استعصت على كثير من الفقهاء .

٤ - كل الكتب التى كتبت عن الليث والتى بين أيدينا ذكرتهما . . وسواء أصحت القصتان أم كانتا خيالا فإن فيهما طرافة .

وها هى القصة الأولى ننقلها عن الحلية :

عن أبى على الحسن بن مليح الطرائفى بمصر .. حدثنا لؤلؤ الخادم - خادم الرشيد - قال:

جرى بين هارون الرشيد وبين ابنة عمه زبيدة مناظرة وملاحاة فى شىء من الأشياء، فقال هارون لها فى عرض كلامه: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة، ثم ندم واغتما جميعاً بهذا اليمين، ونزلت بهما مصيبة لموضع ابنة عمه منه، وجمع الفقهاء وسألهم عن هذا اليمين فلم يجد منه مخرجا ، ثم كتب إلى سائر البلدان من عماله أن يحمل إليه الفقهاء من بلدانهم، فلما اجتمعوا جلس لهم وأدخلوا عليه، وكنت واقفاً بين يديه لأمر إن حدث يأمرنى بما شاء، فسألهم عن يمينه وكنت المعبر عنه، وهل له منها مخلص فأجابه الفقهاء بأجوبة مختلفة، وكان إذ ذاك فيهم الليث ابن سعد فيمن أشخص من مصر، وهو جالس فى آخر المجلس لم يتكلم بشىء، وهارون يراعى الفقهاء واحدا واحدا.

فقال له : بقى ذلك الشيخ فى آخر المجلس لم يتكلم بشىء، فقلت له إن أمير المؤمنين يقول لك:

- مالك لا تتكلم كما تكلم أصحابك؟

فقال:

- قد سمع أمير المؤمنين قول الفقهاء وفيه مقنع ، فقال: قل إن أمير المؤمنين يقول: لو أردنا من ذلك سمعنا من فقهائنا، ولم نشخصكم من بلدانكم ، ولما أحضرت هذا المجلس؟

فقال: يخلى أمير المؤمنين مجلسه إن أراد أن يسمع كلامى فى ذلك؟

فانصرف من كان بمجلس أمير المؤمنين من الفقهاء والناس ثم قال: تكلم

فقال: يدنينى أمير المؤمنين.

فقال: ليس بالحضرة إلا هذا الغلام، وليس عليك منه عين.

فقال: يا أمير المؤمنين أتكلم على الأمان وعلى طرح للتعمل والهيبة والطاعة لى من أمير المؤمنين فى جميع ما آمر به؟

قال: لك ذلك.

قال: يدعو أمير المؤمنين بمصحف جامع، فأمر به فأحضر.

فقال: يأخذه أمير المؤمنين فيتصفحه حتى يصل إلى سورة الرحمن، فأخذه وتصفحه حتى وصل إلى سورة الرحمن.

فقال: يقرأ أمير المؤمنين ، فقرأ، فلما بلغ ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ قال: قف يا أمير المؤمنين ههنا. . فوقف، فقال: يقول أمير المؤمنين، والله، فاشتد على الرشيد وَعلّيَ ذلك. .

فقال له هارون : ما هذا؟

قال: يا أمير المؤمنين، على هذا وقع الشرط، فنكس أمير المؤمنين رأسه، وكانت زبيدة فى بيت مسبل عليه ستر قريب من المجلس تسمع الخطاب - ثم رفع هارون رأسه فقال: والله، قال: الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إلى أن بلغ آخر اليمين، ثم قال: إنك يا أمير المؤمنين تخاف مقام الله.

قال هارون: إنى أخاف مقام الله.

فقال : يا أمير المؤمنين، فهى جنتان وليس بجنة واحدة كما ذكر الله تعالى فى كتابه. فسمعت التصفيق والفرح من خلف الستر.

وقال هارون: أحسنت والله بارك الله فيك. ثم أمر بالجوائز والخلع لليث بن سعد.

ثم قال هارون: يا شيخ اختر ما شئت وسل ما شئت تجب فيه.

فقال: يا أمير المؤمنين ، وهذا الخادم الواقف على رأسك.

فقال : وهذا الخادم.

فقال: يا أمير المؤمنين والضياع التى لك بمصر ولابنة عمك أكون عليها وتسلم إلى لأنظر فى أمورها.

فقال: بل نقطعك إقطاعاً.

فقال: يا أمير المؤمنين ما أريد من هذا شيئاً بل تكون فى يدى لأمير المؤمنين فلا يجرى علىَّ حيف العمال وأعز بذلك.

فقال: لك ذلك.. وأمر أن يكتب له ويسجل بما قال، وخرج من بين يدى أمير المؤمنين بجميع الجوائز والخلع والخادم وأمرت زبيدة له بضعف ما أمر به الرشيد، فحمل إليه واستأذنه فى الرجوع إلى مصر فحمل مكرماً أو كما قال.

ويقول المرحوم الشيخ مصطفى عبدالرازق معلقاً على هذه القصة:

- أفتى الليث بن سعد هارون الرشيد فى رد طلاقه مراعياً فى ذلك الناحية الروحية من قبل أن يراعى ظواهر الأحكام.

أما القصة الثانية فقد رواها يحيى بن عبدالله بن بكير قال: سمعت الليث بن سعد يقول:

كنت أسمع بذكر أبى حنيفة وأتمنى أن أراه، فكنت يوماً فى المسجد الحرام فرأيت حلقة عليها الناس مجتمعين، فأقبلت نحوها فرأيت رجلاً من أهل خراسان أتى أبا حنيفة فقال إنى رجل من أهل خراسان كثير المال وأن لى ابنا ليس بالمحمود وليس له ولد غيره.. فذكر نحوه سوءاً وزاد.

فقال الليث: فوالله ما أعجبى قوله بأكثر مما أعجبى سرعة جوابه.

والقصة المشار إليها أن الرجل قال: يا أبا حنيفة، قصدتك أسألك عن أمر قد أهمنى وأعجزنى، قال: ما هو؟

قال: لى ولد وليس لى غيره.. فإن زوجته طلق، وإن سريته أعتق، وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة؟

فقال له للوقت:

- اشتر الجارية التى يرضاها هو لنفسك ثم زوجها منه.. فإن طلق رجعت مملوكتك إليك، وإن أعتق أعتق مالا يملك.

والمتتبع لما يرويه الليث من الأحاديث يجد فيها كثيرا مما يتعلق بحسن السلوك وكمال الخلق إلى جانب ما يتعلق بأحكام الحدود والمعاملات.

وفى بغداد جرى حديث بين الإمام الليث وهارون الرشيد.. فيه حكمة، وفيه سداد الرأى ما فيه روى ابن حجر عن الليث بن سعد قال:

- لما قدمت على هارون الرشيد قال لى.

- يا ليث ما صلاح بلدكم؟

قلت: يا أمير المؤمنين صلاح بلدنا إجراء النيل وصلاح أميرها، ومن رأس العين يأتى الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت العين.

قال: صدقت يا أبا الحارث.

ويقول الدكتور أحمد عمر هاشم:

استفاد الليث من رحلاته صغيراً، واستفاد من رحلاته كبيراً، وكانت حياته كلها استفادة وإفادة.

يقول أبو نعيم فى الحلية.

- أدرك الليث نيفا وخمسين رجلاً من التابعين.

ويقول ابن حجر عمن تلقى عنهم الليث:

سمع ببلده من يزيد بن أبى حبيب وجعفر بن ربيعة، والحارث بن يعقوب، وعبيد الله بن أبى جعفر.

وبالحجاز من عطاء بن أبى رباح، ونافع مولى ابن عمر، وهشام بن عروة، ويحيى بن سعيد الأنصارى، وأبى الزبير محمد بن مسلم المكى، وأيوب بن موسى

الأموى، وعبدالله بن عبيد الله ابن أبى مليكه، وعمرو بن شعيب، وعمرو بن دينار، وقتادة وسمع فى رحلته إلى العراق، وهو كبير بن هشيم وهو أصغر منه.

ويقول ابن حجر أيضاً:

وسمع من أبى الزبير، وحديثه عنه من أصح الحديث، فإنه لم يسمع منه شيئاً دلس فيه.. ويستفيض صاحب كتاب الرحمة الغيثية فى ذكر من سمع منهم الليث.

كان الليث بن سعد بجانب علمه وفقهه.. رقيق القلب.. عطوفاً.. محباً للخير.. فأحبه الناس حباً جماً، ومما يروى عنه أن رجلاً باع داره بأربعة آلاف درهم.. واشتراها الليث بن سعد، وعندما ذهب رجل من قِبله لأخذ مفاتيح الدار وجد بها الأطفال يبكون فقد حرموا الدار التى تأويهم ورجع لِيخبر الليث بما رأى من مشهد الأطفال، وكيف رجوه أن ينتظر عليهم بعض الوقت حتى يجدوا مأوى لهم.

فبكى الليث وترك لهم المنزل، وأرسل معونة لهم.

ويروى أن الإمام الشافعى وقف على قبره وقال:

لله درك من إمام.. حزت أربع خصال لم يحزهن عالم:

- العلم.
- والعمل.
- والزهد.
- والكرم.

وقال عبدالله بن صالح كاتبه:

صحبت الليث بن سعد عشرين سنة لا يتغذى ولا يتعشى إلا مع الناس، وكان لا يأكل إلا لحما ويقول: إنه يزيد فى العقل.. إلى أن مات.

وخرج الليث راكباً، فقُوِّمَتْ ثيابه ودابته وخاتمه وما عليه بثمانية عشر ألف درهم إلى عشرين ألفا، وكان يتصدق كل يوم على ثلاثمائة مسكين.

ويروى عنه أنه عندما زار مدينة رسول الله ﷺ لزيارة قبر الرسول بعد الحج . . أهداه الإمام مالك طبقاً من تمر، فما كان من الليث بن سعد أن وضع فى الطبق إلى الإمام مالك هدية بها ألف دينار.

ويروى عنه أيضاً الرواه أن امرأة جاءت إليه بإناء صغير تطلب منه أن يملأه عسلاً، فأرسل لها زقاً مملوءاً عسلاً، وعندما قالوا له إنها لم تطلب سوى أن تملأ لها ما تحمله من إناء صغير.

كان رد الإمام:

- إنها طلبت على قَدْرِها ودفعنا لها عن قدرنا.

ويقول رواة سيرته.

أن غلَّة ضياعه وأملاكه كانت فى كل سنة ثمانين ألف دينار، وما وجبت عليه زكاة قط . . بمعنى أنه كان ينفق ويتصدق بدخله هذا على المحتاجين.

كما يقولون أنه عندما مرض لهيقه وكان فقيها وقاضى مصر، زاره الليث بن سعد وعلم أنه مدين بألف دينار، وأنه يخشى هذا الدين، فسدده عنه الليث بن سعد.

شخصية عظيمة فى علمها . . عظيمة فى تواضعها . . عظيمة فى سخائها، عظيمة فى حب الخير . . ضيعه تلاميذه كما قال الإمام الشافعى لأنهم لم يدونوا فقهه . . ولم يدونوا هذا العلم الغزير الذى كان يتمتع به، ومن هنا فنحن لم نعرف عن هذا الفقيه إلا أقل القليل بعكس باقى الأئمة التى حفظها التاريخ لأن تلاميذهم حرصوا على أن يسجلوا ما سمعوه من أساتذتهم العظام ، فظل هذا الفقه نور هداية للناس فى عصورهم إلى اليوم وإلى الغد، حتى يرث الله الأرض ومن عليها . . ولكن الذى حفظته ذاكرة التاريخ أن معاصريه تحدثوا على أنه كان عالماً عظيماً . . وفقيهاً مجتهداً . . ورجل بر وخير، بجانب أنه محدثا، ملما بالأحاديث النبوية الشريفة.

وقال شعيب بن الليث:

قيل لأبى: إنا نسمع منك الحديث ليس فى كتبك.

قال:

- لو كتبت ما فى صدرى فى كتبى ما وسعه هذا المركب.

- وقد أفضى الدارسون الخلاف فى بعض المسائل الفقهية بينه وبين الإمام مالك، وكانت لهما رسائل فى ذلك؛ وكل ذلك يدل على أن الإمام الليث كان قامة عالية فى الفقه، وكانت له أراؤه التى تتسم بالعمق والرؤية السليمة المستمدة من الكتاب والسنة.

وهو كما يقول عنه الشيخ مصطفى عبدالرازق:

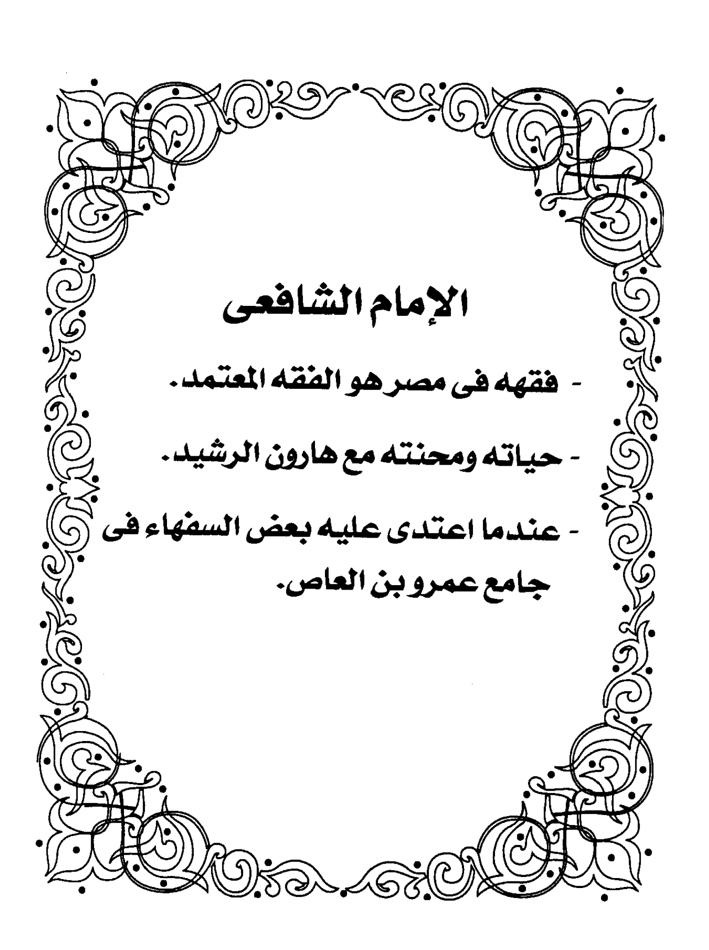
وهذا الذى نهض به الليث من توجيه الحركة الفقهية إلى الناحية الخلقية والروحية، كان من حقه أن يجعل الليث معدوداً من أئمة الصوفية الذين نهضوا بالتصوف نهضته الأولى.. ونهضة التصوف الأولى كانت أخلاقية.

ولقد رحل الإمام الليث بن سعد عن دنيانا فى ليلة الجمعة منتصف شهر رمضان فى سنة ١٧٥هـ وقد شيعه إلى مثواه الأخير خلق، كثير وكان الناس يعزون بعضهم بعضا فيه.

ويروى الرواة أنه عندما دفن سمع الناس قائلاً يقول:

قد مضى الليث فلا ليث لكم

ومضى العِلْم جميعـــاً وقـُبر



الإمام الشافعى

- فقهه فى مصر هو الفقه المعتمد.
- حياته ومحنته مع هارون الرشيد.
- عندما اعتدى عليه بعض السفهاء فى جامع عمرو بن العاص.



ولد محمد بن إدريس الشافعى فى غزة سنة ١٥٠ هـ، وهى نفس السنة التى مات فيها الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان، وعندما مات والده فى غزة، حملته أمه لتعود به إلى مكة تحتفظ بحقه فى بيت المال. وحتى يحفظ القرآن الكريم بها ويتعلم على يد علمائها فى بيت الله الحرام.

والإمام الشافعى يلتقى بالنبى عليه الصلاة والسلام فى الجد التاسع للنبى فهو: محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن هاشم بن عبدالمطلب بن عبدمناف بن قصى.

حفظ الشافعى القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين وجوّده على يد مقرئ مكة إسماعيل بن قسطنطين ، وجوده وهو فى الثانية عشرة من عمره، حتى أنه كان يقرأ القرآن الكريم فى هذه السن فى بيت الله الحرام وكان الناس يبكون عند سماعهم صوته لما فيه من عذوبة وشجن، وتعلم على يد كبار رجال عصره، ودفعته أمه إلى قبيلة هذيل، حتى يتعلم العربية ، ويتربى تربية بدنية سليمة فى جو الصحراء ، وعاش هناك قرابة سبعة عشر عاماً كما يقول بعض الرواة، وعاد منها وقد حفظ الكثير من التراث الشعرى كما تعلم الفروسية، وكان الشافعى فارع الطول ضامر الجسم، وقد تزوج من حميدة حفيدة عثمان بن عفان، وأنجب منها محمداً.. وأنجب زينب وفاطمة، كما أنجب فى آخر أيامه (أبا الحسن) من زوجة أخرى مات فى طفولته.

وكان الشافعى يقول وهو يتحدث عن رحلة عمره:

- مالك معلمى وأستاذى ، منه تعلمت ، وما من أحد آمن على من مالك وقد جعلت مالكا حجة بينى وبين الله سبحانه وتعالى.

ومن الأمور التى لم ينسها الإمام هو ذهابه إلى اليمن ، وكان سبب ذهابه إليها أن والى اليمن عندما ذهب إلى مكة طلب منه بعض القرشيين أن يستعين بالإمام

الشافعى ، ووافق الوالى على ذلك . . وفى اليمن ظهرت قدرة الإمام الشافعى على فض الخصومات والنزاعات بين الناس، وربما جعل ذلك يوغر بعض الناس عليه، فما كان من أحد قواد الرشيد، أن أرسل إلى الخليفة تقريراً يتحدث فيه عن الإمام الشافعى؛ وأنه يؤيد العلويين، وبالتالى فهو خطر على الخلافة العباسية ،ومما قاله فى رسالته لأمير المؤمنين :

« . . . ان بينهم رجلاً يقال له محمد بن إدريس الشافعى يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه» .

وما كان من الرشيد إلا أن أمر بإحضار هؤلاء العلويين المتهمين وبينهم الإمام الشافعى إلى (الرقة) حيث كان يوجد الخليفة الرشيد . . وعندما حضروا أمام الرشيد أمر بقتل تسعة منهم . . !

كان الشافعى فى الرابعة والثلاثين من العمر، عندما واجه هذه المحنة . . وقد واجهها بقلب ثابت، وعقل حاضر وشهد هذه المحاكمة محمد بن حسن الشيبانى صاحب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان .

وتحدث الإمام الشافعى مدافعاً عن نفسه ، فنفى أنه علوى . . بل أنه أقرب إلى الخليفة لأن جده عبدالمطلب وهاشم جد الرشيد أخوان . . وأن له حظاً من العلم والفقه وقال أن القاضى يعرف ذلك .

وعندما نظر الرشيد إلى القاضى . . أيد القاضى أقوال الشافعى، وشهد أن ما يقوله هو كما يقول .

وظهرت براءة الإمام الشافعى، وأمر له الرشيد بعطاء قدره خمسون ألفا وخرج الإمام من هذه المحنة ليتفرغ للعلم وليبزغ نجمه فى مجال الفقه، ويصبح ثالث الأئمة الأربعة الكبار .

كان الإمام شديد الورع . . شديد الإيمان باللّه ، لا يخاف من شىء لأنه يعلم أن الله ناصره ومؤازره .

يروى أحمد بن خلاد :

قال لى رجل من أولاد الفضل بن الربيع :

- بعث إلىَّ هارون الرشيد فى ساعة لم تكن العادة أن آتى فى مثلها ولا أدعى، فأسرعت إلى أن وقفت بين يديه فقال لى وهو فى غاية الحنق:

- يا فضل .

- لبيك يا أمير المؤمنين .

- ما فعل الحجازى (يقصد الشافعى)؟

- هو بالباب يا أمير المؤمنين .

- أدخله .

- فانطلقت وقلت له : أدخل .

- فقام وهو يحرك شفتيه .

- فلما دخلنا عليه قام له الرشيد .

وأقبل إليه يمشى ثم قال له :

- لم تر من حقنا على نفسك أن تزورنا حتى بعثنا إليك ، وقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم .

- قال : لا إرب لى فيها يا أمير المؤمنين!

فقال له : بالقرابة التى بينى وبينك إلا ما أخذتها . . أحملها معه يا فضل .

فلما خرجنا وسكن عنه الرعب قلت له :

- رأيتك تحرك شفتيك بشىء . . فما الذى قلت؟

قال :

- حدثنى مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ دعا يوم الأحزاب على قريش فقال :

«اللهم إنى أعوذ بنور قدسك ، وعظمة طهارتك ، وبركة جلالك. . من كل آفة وعاهة. . ومن كل طارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير ، يا رحمن ، اللهم أنت ملاذى فيك ألوذ، وأنت عياذى فيك أعوذ ، وأنت غياثى فيك أغوث يا من ذلت لك كل رقاب الجبابرة ، وخضعت له مقاليد الفراعنة، أعوذ بك من خزيك، ومن كشف سترك، ومن نسيان ذكرك والانصراف عن شكرك.

أنا فى كنفك ليلى ونهارى، ونومى وقرارى، وظعنى وأسفارى. . ذكرك شعارى، وثناؤك دثارى لا إله إلا أنت ، تعظيماً لاسمك، تكريماً لسبحات وجهك. . أجرنى من خزيك ومن شر عقابك. . . واضرب على سرادقات حفظك، وادخلنى فى عنايتك . . وعد على بخير منك يا أرحم الراحمين».

ومرت المحنة.

وعاش الإمام وهو يصر على أن تكون حياته للعلم والفقه والعبادة.

لقد أقام الإمام فى بغداد سنتين منذ أن قدم إليها سنة ١٩٥ هـ، ثم رجع إلى مكة، وعاد إلى بغداد مرة أخرى ١٩٨ هـ حيث أقام عدة شهور قرر بعدها الرحيل إلى مصر عام ١٩٩ هـ . . وظل بها يعقد الحلقات فى مسجد عمرو بن العاص، ويصحح أصول مذهبه الجديد ، إلى أن غادر دنيانا سنة ٢٠٤ هـ، فى آخر ليلة من شهر رجب، بعد أن ترك تراثاً خالداً قال عنه تلميذه الإمام أحمد بن حنبل:

« ما مس أحد محبرة ولا قلما إلا والشافعى فى عنقه منه».

عاش الرجل فى مصر . . وقرأ فقه الإمام الليث بن سعد وشاهد الحياة فى مصر، وأن الحياة بها تختلف عن الحياة فى الحجاز وغيرها من البلاد التى زارها فبلور مذهبه الجديد، واعتبر أن هذا المذهب الذى أعده فى مصر هو المعتمد. . فهو كما يقول أحمد أمين فى أول أمره يعد نفسه تلميذا لمالك ومتبعاً لمذهبه وتعاليمه وأحد رجال مدرسته. ومازال كذلك إلى سنة ١٩٥ هـ حيث قدم بغداد قدمته الثانية. فهناك بلغ مبلغ مؤسس مذهب يدعو إليه، والظاهر أن أقوى ما أثر فيه اتصاله فى قدمته الأولى بأصحاب أبى حنيفة، استفادته من كتب محمد وعلمه بطريقة أهل

العراق. فقد رأى من غير شك أن طريقتهم لا يحسن أخذها كلها، ولا تركها كلها . . فعندهم القياس وهو منهج صحيح ، ولكنه فى نظره ليس على إطلاقه بل لابد أن يتأخر عن الأحاديث الصحيحة حتى ما كان منها خبر أحاد . . وعندهم طريقة التفريغ، وتوليد المسائل الكثيرة من أصولها، وهى طريقة جيدة، وعندهم الجدل والاستدلال بالعدالة والمصلحة، وإلحاق الشبيه بالشبيه وما بين الأشياء من فروق وموافقات ، والمناظرة فى ذلك ، وتأليف الحجج، وقد رأى ذلك حسنا ، ورأى نفسه فى استدلال جيد للدخول فى هذا الباب والتفوق فيه ، فاقتبس من ذلك أحسنه، وأضافه إلى ثروته الحجازية من اللغة والأدب أولا ، والحديث وإجماع أهل المدينة ، وطريقة الحجازيين فى الاستنباط . . هاتان الناحيتان قد استفاد منهما الشافعى . . وألف بينهما بشخصيته ، فأخرج مذهباً جديداً دعا إليه فى العراق سنة ١٩٥ هـ ، وتبعه عليه أصحابه البغداديون مثل أبى على الحسين على الكرابيسى وكان من مشاهير علماء العراق، وله مصنفات كثيرة (مات سنة ٢٥٦هـ) ومثل أبى ثور الكلبى. وقد صحب الشافعى فى بغداد وأخذ عنه، وألف فى مسائل الاختلاف بين مالك والشافعى وكان أميل إلى الشافعى فى كتبه.

وكأبى على الزعفرانى كان يقرأ كتب الشافعى التى ألفها قبل قدومه إلى مصر، ولكن يبدو أن الشافعى لم يجد لمذهبه فى العراق نجاحاً كبيراً لمزاحمة الحنفيين له، ولما لهم من جاه وسلطان وقوة فتحول إلى مصر.

قال الزعفرانى : لما أراد الشافعى الخروج إلى مصر أنشد لنفسه.

أخى أرى نفسى تتوق إلى مصر

ومن دونها أرض المهامة والفقر

فوالله لا أدرى أللفوز والغنى

أساق إليها أم أساق إلى قبرى؟

قال الزعفرانى:

فوالله لقد سيق إليهما جميعاً.

والشافعى يوضح منهجه بقوله:

- الأصل قرآن وسنة، فإن لم يكن فقياس عليهما وإذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصح الإسناد منه فهو سنة.

والإجماع أكبر من الخبر المفرد، والحديث على ظاهره، وإذا احتمل معانى فما أشبه منها ظاهره أولاه به. وإذا تكافأت الأحاديث فأصحها اسناداً أولاها، وليس المنقطع بشىء ما عدا منقطع المسيب، ولا يقاس أصل على أصل، ولا يقال للأصل لم وكيف؟ وإنما يقال للفرع لم، فإذا صح قياسه على الأصح صح وقامت به الحجة.

لقد كان الإمام الشافعى فقيهاً عظيماً، وعقلية منظمة، أوتى من الذكاء وكثرة القراءة والتأمل، وفهمه للقرآن الكريم والسنة المطهرة، وإطلاعه على مذهب الإمام مالك والإمام أبى حنيفة، ورؤيته العميقة للأمور ما جعل مذهبه ينتشر ويذاع فى كثير من أنحاء العالم الإسلامى، وقد خفت هذا المذهب فى مصر عندما حكم الفاطميون مصر، ثم ذاع من جديد بعد أن زالت دولتهم، وحكم مصر صلاح الدين الأيوبى، حيث انتشر مذهب الشافعى من جديد فى مصر والشام والعراق، واشتهر من فقهاء الشافعية محيى الدين النووى، وابن دقيق العيد، وتقى الدين السبكى والسراج البلقينى وغيرهم.

والإمام الشافعى هو الذى تحدث عنه الإمام أحمد بن حنبل فقال:

«كان الشافعى كالشمس للدنيا، والعافية للناس وليس عنه عوض».

والإمام الشافعى هو القائل:

«من ولى القضاء ولم يفتقر فهو سارق».

«من حفظ القرآن نبل قدره، ومن تفقه عظمت قيمته، ومن حفظ العربية والشعر رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه القلم».

وكان الإمام الشافعى شاعراً يتسم بالشفافية والعمق ، وكان يشعر بنفسه ويؤمن بأنه شاعر كبير . . فهو القائل :

ولولا أن الشعر بالعلماء يزرى.

لكنت اليوم أشعر من لبيد.

وهو يقصد أن الشعر فيه الكثير من الخيال، بينما العلم يعتمد على الموضوعية والواقع، وكان يقول:

- لا يكاد يجود الشعر فيه الكثير من الخيال ، بينما العلم يعتمد على الموضوعية والواقع ، وكان يقول :

ولا يكاد يجود خط القرشى لأن النبى ﷺ ما كان يكتب بدليل قوله تعالى:

﴿ . . وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ . . ﴿٤٨﴾ ﴾[العنكبوت].

ومن أجمل ما كتبه الشافعى قوله:

ولما قسى قلبى وضاقت مذاهبى

جعلت الرجا منى لعفوك سلّما

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته

بعفوك ربى كان عفوك أعظما

فمازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل

تجود وتعفو منَّة وتكرما

فلولاك لم يصمد لإبليس عابد

فكيف وقد أغوى صفيك أدما

كانت الأيام التى عاشها الإمام فى مصر حبيبة إلى نفسه ، لولا بعض التصرفات الغبية من بعض السفهاء الذين كانوا يهاجمونه ، وكانوا من أتباع الإمام مالك ،

ورغم أن الشافعى شديد الإعجاب بأستاذه مالك ، وقد أثمر اجتهاده عن هذا المذهب الشافعى ، وهو كما قال عنه الرازى :

«فإن الناس كانوا قبله يتكلمون فى مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعارضون ، ولكن ما كان لديهم قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة وفى كيفية معارضاتها وترجيحاتها ، فاستنبط الشافعى - رحمه الله - علم أصول الفقه ، ووضع للخلق قانونا كلياً يرجع إليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع ، فثبت أن نسبة الشافعى إلى علم الشرع كنسبة أرسطوطا ليس إلى علم العقل» .

كان الإمام الشافعى يعانى من آلام (البواسير) وكان كثيراً ما يعانى من نزف الدماء منها، وفى أحد المرات التى كان يجلس فيها إلى الدرس بالمسجد ، انتهز بعض الحمقى خروج الناس ووجود الإمام وحده بالمسجد وانهالوا عليه بالعصى، مما جعله يعانى آلام هذا الضرب من هؤلاء السفهاء ، ومن المرض ومات الإمام الشافعى ليلة الخميس بعد المغرب فى آخر ليلة من شهر رجب سنة ٢٠٤ هـ عن عمر يناهز الرابعة والخمسين وكانت وفاته عند عبدالله بن الحكم، وقبل وفاته أرسل إلى السيدة نفيسة يسألها الدعاء ، وكان كلما ألم به المرض يسألها الدعاء ولكنها فى هذه المرة قالت لمن أرسله :

«أحسن الله لقاءه ومتعه بالنظر إليه » .

ولما مات وحملوا جنازته إلى السيدة نفيسة رضى الله عنها . . صلت عليه صلاة الجنازة وقالت رحم الله الشافعى . . أنه كان يحسن الوضوء وهى تقصد أن الوضوء أصل العبادات.

ولقد دفن الإمام يوم الجمعة . . أى فى اليوم التالى لوفاته.

ويروى الرواة ممن أرخوا لسيرة الإمام الشافعى ، أنه بعد أيام من رحيله جاء أحد الأعراب إلى الحلقة التى كان يعظ فيها الناس ولم يجده فتساءل :

- أين قمر هذه الحلقة وشمسها؟

قالوا : توفى إلى رحمة الله .

بكى الأعرابى وقال :

- رحمه الله وغفر له ، كان يفتح ببيانه منغلق الحجة ، ويوسع بالرأى أبواباً منسدة .

لقد رحل الإمام الشافعى ، وبقى فقهه وعلمه وأشعاره . . نور هداية للناس فى كل العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .



الإمام

أحمد بن حنبل

- كان فقهه مشابهاً لفقه الصحابة والتابعين

الإمام أحمد بن حنبل

ولد أحمد بن حنبل فى شهر ربيع الأول ١٦٤هـ ، ووفاته سنة ٢٤١ هـ ، أى أنهَ عَمَّر نحو سبع وسبعين سنة.

ولد ببغداد وكان والده أحد قادة العباسيين بها، ولكنه رحل عن دنيانا ولم يبلغ الثلاثين من عمره، ونشأ أحمد بن حنبل يتيما، فقامت أمه على رعايته، وكانت الأم من قبيلة بنى شيبان، وقررت ألا تتزوج وتتفرغ لتربية ابنها أحمد، وحرصت على أن يحفظ القرآن الكريم، وعلوم اللغة، وفى نفس الوقت كانت تقص عليه سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين.

بدأ فى طلب الحديث وهو ابن ستة عشر سنة وروى عن كبار العلماء والمحدثين فى مكة والمدينة والشام واليمن والكوفة والبصرة والجزيرة كما سمع من سفيان بن عينيه وإبراهيم بن سعد، والإمام الشافعى.

وكان يقول:

- أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر.

وكان يسمع لمشايخه وهو صامت فإذا سئل عن هذا الصمت كان رده:

- بأن الله خلق للإنسان لسانا واحدا، وأذنين ليسمع أكثر مما يتكلم.

وكان عندما يجلس فى المسجد ليحدث الناس يستمعون إليه من صلاة العصر إلى أن يحين آذان المغرب.

وقد روى عنه البغوى ومسلم والبخارى وابن أبى الدنيا كما كان من أصحاب الإمام الشافعى، وقد قال عنه الشافعى:

- خرجت من بغداد وما خلفت فيها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل.

- وقد سأله أحدهم وهو يرى كثرة ترحاله للبحث عن الأحاديث النبوية مرة إلى الكوفة ومرة إلى البصرة إلى متى؟

قال الإمام : مع المحبرة إلى المقبرة.

فقد كان يدون ما يسمع من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ثم يحفظه.

وحول فقهه يرى الشيخ محمد أبو زهرة أنه أبو الفقه، ويقول:

كان أحمد فى جمعه للآثار ، يجمع الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ ويجمع أعمال الرسول وتقريراته ، أى ما يقر أصحابه عليه، ويجمع لأجل هذا أقوال بعض التابعين ، وفتاويهم، إذا كانوا قد بلغوا منزلة من الفتوى يكونون بها حجة يؤخذ عنهم.

لقد ابتدأ حياته طالباً للفقه، ثم كان مع تفرغه للحديث غير منقطع عن الفقه.. بل كان يقتبس من فقهاء عصره ما يرى فيه علم لم يكن يعلمه، كما أخذ عن الشافعى عند التقائه به بمكة سنة ١٨٧هـ ، ثم عند ملازمته له فى الفترة التى قاضاها هنا ببغداد.

وإذا كان قد أخذ عن الشافعى منهاجه الذى سنه ليلتزمه المجتهد فى طلب أحكام الفروع من الكتاب والسنة، وهو ما سمى علم الأصول، فقد كان هو عنده المادة الفقهية التى يستطيع أن يغوص فيها ملتزماً المنهاج الذى سنه الشافعى مضيفاً إليه ما انتهى هو من دراساته إليه، وأن هذه المادة هى ما جمعه من أحاديث وفتاوى.

فقد كانت معيناً أمده بفقه أثرى قويم، وقد استنبط بالبناء عليه ، وخرجه تخريجاً حسناً ، وبهذا التقى عنده علم الحديث والآثار مع الفقه، بل أنه وهو ينقل السنة كان ينقل أعماق الفقه ومصدره.

ولذا جاء فقهه مشابهاً لفقه الصحابة والتابعين لأنه استقى منهم.. حتى لقد ادعى ابن جرير الطبرى أنه كان محدثاً ولم يكن فقيهاً.

ولم يعده ابن قتيبة فى ضمن الفقهاء ، بل عده فى ضمن المحدثين، وذلك لما سبق من تشابه فقهه مع فقه أهل السنة والآثار ، وقربه منهم ولاحترامه آراء الصحـــابة حتى أنه كان لا يرجح بعضها على بعض. فإذا رأى رأيين لاثنين من

الصحابـــة أو ثلاثة اعتبر آراءهم جميعاً أوجها فى مذهبه، أو آراء فيه إلا إذا أيد أحد الآراء بحديث للنبى أو عمل له فإنه يختاره دون سواه، لأن رأى الصحابى مهما يكن مقامه مؤخر عن قول النبىﷺ.

وكل من تحدث عن الإمام أحمد تحدث عن ورعه وتقواه وحبه للخير، وعطفه على الفقراء.. وأنه كان لا يحب أن يعطيه أحد شيئاً حتى الخلفاء، كان يحب أن يكسب قوته من عمل يده، مهما كان هذا العمل، حتى أنه عندما ذهب إلى اليمن. ومكث سنتين للعلم على يد المحدث الشيخ عبدالرازق ، رفض عطاياه، وعاش حياة بالغة الشقاء ، بل كان يؤجر نفسه ليعمل حمالا ، ولا يمد يده لأحد.. ولو حتى بالاقتراض.. كان عزيز النفس.. صبورا .. لا يأبه بأى عمل إذا كان شريفا مهما كان هذا العمل متواضعاً.

ولم يتزوج الإمام إلا بعد سن الأربعين حتى يتفرغ للعلم.

كما أنه كتب «المسند» وصنفه سنة ١٨٠هـ، وهو مائة وعشرون ألف حديث، تكلم فيه عن الناسخ والمنسوخ ، والتاريخ المقدم والمؤخر، والمناسك وغير ذلك.

وراوى المسند المنقول المتداول اليوم بين طلاب الحديث وقارئيه كما يقول الشيخ أبوزهرة هو عبدالله بن أحمد.

أما ترتيب المسند كما رتبه عبدالله فهو أن يجمع أحاديث كل صحابى فى مكان واحد من غير نظر إلى الموضوع، فيجمع كل ما روى عن أبى بكر ويسمى مسند أبى بكر، وكل ما روى عن عمر ويسمى مسند عمر وهكذا بقية الراشدين ، والفقهاء من الصحابة كزيد بن ثابت، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر وغيرهم، أن ذلك يجعل الرجوع إليه لمن يريد أحاديث موضوع معين يدرسه، ويستنبط أمراً منها غير سهل.

يقول الذهبى فى ذلك.

- لو أنه حرر ترتيب المسند وقرب وهذب لأتى بأسنى المقاصد، فلعل الله تبارك وتعالى أن يقيض لهذا الديوان السامى من يخدمه، ويبوبه، ويتكلم عن رجاله

وترتيب هيئته ووضعه، فإنه محتو على أكثر الحديث النبوى، إن شاء الله تعالى ، وقلّ أن يثبت حديث ألا وهو فيه.

ومما يروى عن الإمام أحمد أنه سئل عن رجل حلف بالطلاق إنه لابد أن يطأ امرأته الليلة. . فذهب إليها فوجدها حائضا.

فقال الإمام أحمد.

تطلق امرأته ولا يطؤها لأن الله قد أباح الطلاق، وحرم وطء الحائض. . ولم ينتشر مذهب الإمام أحمد انتشار مذاهب مالك وأبو حنيفة والشافعى، ومع ذلك فإن للرجل دوره فى الحديث. . كما أن أتباعه كانوا متشددين أكثر من اللازم، ولم يكن الإمام متشدداً، بل كان إنساناً ورعاً، وفقيهاً متعمقاً فى فهم السنة ، ولم يكن متطرفا، بل كان معتدلا لأنه على علم بصحيح الدين ، ولم يأخذ بالقشور كما أخذ بعض أتباعه فيما بعد، والذين لم يفهموا مذهب الإمام كما ينبغى الفهم.

والإمام الذى كان محبا للحديث لم يسلم من الأذى. فقد انتشرت بدعة أشعلها أحمد بن أبى دواد، وهو أن القرآن مخلوق، وقد أقنع بفكرته تلك المأمون، الذى اقتنع بها، وكان من يقول غير هذا يعذب، وينحى عن وظيفته، ولا يعود أحد إلى وظيفته إلا إذا قال أن القرآن مخلوق، وقد استغرب الناس من هذا القول، فلم يرد عن الرسول شىء من هذا، ولا من الصحابة ولا من التابعين، ولم يخض أحد منهم فى مثل هذا الحديث. . بل كان الناس يعرفون جميعاً أن القرآن هو كلام الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وما بال هذه البدعة قد ذاعت على يد المعتزلة، والذين كانوا يفسرون الأمور تفسيراً عقلياً، بينما كان الناس يعرفون أن العقل له حدود، وأن العقل يخطىء ويصيب، فما بال الحكام يغرقونه فى مثل هذه المسائل التى لا تخدم الدين، ولم يعرفها الناس قبل أن يشيع فكر الاعتزال ويشجعه المأمون وخلفاؤه من العباسيين؟

أراد البعض أن يسلم من هذه المحنة، فلجأوا إلى الهروب من هذا المأزق، مثل من قال لحاكم بغداد بشر بن الوليد الكندى عندما سأله حاكم بغداد اسحاق بن إبراهيم عن

القرآن هل هو مخلوق أم كلام الله فقال: كلام الله.. وإذا أمرنا أمير المؤمنين بأمر سمعنا وأطعنا.

ويقول خالد محمد خالد عن هذه المحنة:

.. ونعود إلى الإمام «أحمد بن حنبل» وصاحبه محمد بن نوح.

لقد صمدا فى شموخ رهيب عزيز، وأمر المأمون أن يرسلا إليه فى طرسوس، بيد أنه مات وهما فى الطريق، وخلفه المعتصم، ومات «محمد بن نوح» فى سجنه، وبقى أحمد بن حنبل فى السجن وحيداً.

ظل أربعة عشر شهرا بذلت خلالها كل محاولات الترغيب والترهيب، وهو لا يعدل عن هذه الكلمات.

- القرآن كلام الله غير مخلوق.

وحمل إلى المعتصم حيث دار هذا الحوار.

قال المعتصم: إن القرآن مخلوق.

أحمد: كلا.. أنه غير مخلوق.

المعتصم: ألم يقل الله ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وهل يكون الشىء مجهولاً ما لم يكن مخلوقاً؟

أحمد:

- والله كذلك يقول ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ فهل معنى جعلناهم خلقناهم؟

واشترك فى الحوار أحمد بن دواد قاضى القضاة فسأل الإمام أحمد قائلاً:

- أليس الله يقول ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.. والقرآن شىء؟

فأجاب أحمد: والله يقول ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فهل دمرت كل شىء؟

وفى ختام الحوار وعد المعتصم أحمد بالإفراج عنه إذا هو أمسك لسانه، وخفف من حدة رأيه ومقاومته.

لكن الإمام أحمد وقد تعلقت به مسئولية الموقف وتبعاته رفض كل مادته.

وألقى ابن دواد فى روع الخليفة أن أى انتصار لأحمد سيزلزل عرش الخليفة ويعرضه للسقوط، ويجعل من الإمام أحمد زعيماً شعبياً يخشى خطره، وهكذا أمعن المعتصم فى إيذاء أحمد وأمر بجلده.

ويروى «المقريزى» أنه تعاقب على جلده مائة وخمسون جلاداً.

وتلقى الإمام الباسل وقع السياط فى صبر وجلد.

وتطورت القضية تطوراً كبيراً ، ولم يعد الإمام أحمد يدافع عن القرآن وحده، بل ويدافع عن الضمير الإنسانى ضد سلطة باغية، تريد أن تجرع ضمائر الناس عقيدتها، وتريد أن تحملهم فى دينهم على مالا يرونه حقاً.

وتظل الراية فى يمين الإمام أحمد حتى ينتصر انتصاراً عظيماً، ويتبدد خصومه واحدا بعد واحد، وتدفن الفتنة المفتعلة فى تراب الهزيمة.

لقد عذب الإمام أحمد.. كانوا يضربونه بالسياط ولا يتركونه إلا بعد أن يغمى عليه.. وظل كذلك فى سجنه نحو ثمانية وعشرين شهراً!

وقد يئسوا من أن ينصاع لهم الأمام وأفرجوا عنه، وخرج من سجنه وقد زاد الناس من احترامهم له.

وعندما تولى الموفق الحكم منع الإمام من الاجتماع بالناس وظل الحال إلى أن تولى المتوكل الخلافة، وكان يكره المعتزلة، ويكره الخوض فى هذه المسائل التى لامعنى لها ولم يتحدث فيها الصحابة، وأبعد ابن أبى دواد، وقرب إليه الإمام أحمد.

وهكذا انتهت هذه الفتنة التى عصفت بعدد من العلماء وعلى رأسهم الإمام أحمد.

هذه صورة سريعة عن هذا الإمام الجليل الذى ترك تراثاً خالداً وبقى اسمه يتردد عبر الأجيال ونسى الناس هؤلاء الذين كانوا سوط عذاب على أفكار الناس ومعتقداتهم.

لقد ظل اسم الإمام وفقهه واجتهاداته نور هداية للناس فى كل العصور.

وظل الناس يرددون تلك الكلمة التى قالها الصديق أبو بكر، وكان يرددها دائماً الإمام أحمد إذا سمع مدحا من أحد.

«اللهم أنت أعلم منى بنفسى، وأنا أعلم بنفسى منهم.

اللهم اجعلنى خيرا مما يظنون، واغفر لى ما لا يعلمون، ولا تؤاخذنى بما يقولون».





الإمام الغزالى

كان اللجوء إلى الله

خلاصاً لروحه ولنفسه

الإمام الغزالى

لا شك أن الإمام أبو حامد الغزالى شخصية من أبرز الشخصيات فى الفكر الإسلامى. ألمَّ بعلوم الشرع والمنطق والفلسفة، كما ألم بكل علوم عصره، حتى أعده البعض من الفلاسفة لدراسته كل المذاهب الفلسفية فى عصره.. وكتب عنها وهاجمها هجوم العارف بخبايا دقائقها كما فعل فى كتابه «تهافت الفلاسفة» ، أو عرضه لهذه المذاهب فى كتابه «المقاصد»، واعتبره البعض الآخر أنه ليس فيلسوفاً رغم تعمقه فى دراسة الفلسفة اليونانية، ولكنه مفكر كبير، آثر أن يتجه نحو التصوف الإسلامى.. فدرسه من جميع جوانبه، ثم مارسه ممارسة عملية وكان تصوفه يعتمد على الكتاب والسنة، أى أنه كان تصوفاً سنياً بعيداً عن شطحات التصوف الفلسفى من أعظم مفكرى ومتصوفة الإسلام بشهادة كل من درس حياته وثقافته من مفكرى الإسلام والغرب على السواء، وسواء أيدوا أفكاره أو عارضوها.

ولد الغزالى بطوس عام ٤٠٥هـ ، وقد عهده أحد الصوفية من أصدقاء أبيه، فقد أوصى والده هذا الصوفى على رعاية ولديه أحمد ومحمد.. وقام الرجل بما يجب أن يقوم به الرجل الصالح، فرعى ولدى صديقه، وقد تتلمذ الغزالى فى صباه على أحمد الراذكانى، وأبى منصور الإسماعيلى فى طوس، وبعدها توجه إلى نيسابور حيث تتلمذ على أبو المعالى الجوينى الملقب بإمام الحرمين، وعندما توفى الإمام الجوينى عام ٤٧٨هـ، خرج الإمام الغزالى وكان قد درس كل ما يجرى فى عصره من معارف، خرج واتجه إلى العسكر، حيث أكرمه الوزير نظام الملك، وقد أعجب به نظام الملك عندما شهد مناظرة بين الغزالى وبعض العلماء، وهنا وجد أن الإمام الغزالى قد تفوق عليهم بالحجة والبرهان، وأيقن أنه عالم كبير، ومفكر كبير أيضاً، فعهد إليه بالتدريس بالمدرسة النظامية فى بغداد. وعندما قدم بغداد أعجب الناس بعلمه وبلاغته وفصاحته، وقدرته الفائقة عن الحديث فى مختلف قضايا

الشرع والفلسفة والكلام، قدرة فائقة ، تبدت فى نقده للفلسفة وما فيها من تهافت ولكن الإمام الغزالى رغم علمه وفقهه وتعمقه فى علوم عصره ألمت به محنة قاسية، محنة أحسها فى أعماقه، واستبدت به، وأصيب بأزمة نفسية شديدة القسوة.

انتابته حالة من الشك، طلب من الله العلى العزيز أن ينقذه منها . . فاعتزل الناس، وتفرغ للتعبد والتأمل. . وهو يصور هذه الأزمة بقوله:

– ثم لاحظت أحوالى فإذا أنا منغمس فى العلائق (التعلق بالدنيا) وقد أحدقت بى من الجوانب، ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس، فإذا أنا مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة. . ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس، فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أننى على شفا جرف هار، وأننى قد أشفيت على النار إن لم اشتغل بتلافى الأحوال.

فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوما، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً، وأؤخر عنه أخرى، لا تصفو لى رغبة فى طلب الآخرة بكره إلا ويحمل جند الشهوة حملة فيفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلامها إلى المقام، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل، الرحيل، فلم يبق من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل، ثم يعود الشيطان فيقول: هذه حالة عارضة وإياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر. . وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحداً تطبيباً لقلوب المختلفين إلى، فكان لا ينطق لسانى بكلمة، ولا استطيعها البتة، وورثت هذه الفعلة فى اللسان حزناً فى القلب، بطل معه قوة الهضم وذم الطعام والشراب، فكان لايستساغ لى شربة، ولا ينهضم لى لقمة، وتعدى الأمر إلى ضعف القوى حتى

قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم.

ثم لما أحسست بعجزى . . وسقط بالكلية اختيارى، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له».

ومن هنا نرى أن الغزالى فى محنته تلك اتجه إلى الله تعالى لينقذه من هوه الشك، وقد شفى من ذلك عندما استجاب الله له، وتم له الشفاء.

وهو يصور ذلك بقوله:

- فأعضل هذا الداء ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة - بحكم الحال، لا يحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضرورات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين، ولم يكن كل ذلك بتنظيم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة.

وهكذا أصبح الإمام الغزالى يستضئ فكره بنور الإيمان. ويرى أن الصوفية هم السالكون حقاً لطريق الله، فطريقهم هو خير الطرق.

يقول الإمام الغزالى:

« الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، وذلك لأن حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ».

وقد أقبل الغزالى بعد ذلك كما يقول الدكتور أبو الوفا التفتازانى على حياة من نوع جديد، وهى حياة الزهد والعبادة والتكمل الروحى والأخلاقى والتقرب إلى الله.

وفى سنة ٤٨٨ هـ خرج من بغداد وقصد إلى الحج، ولما انتهى من الحج ذهب إلى الشام سنة ٤٨٩هـ ، وقام بدمشق يدرس بزاوية الجامع فى الجانب الغربى منه، وانتقل إلى بيت المقدس، واجتهد فى العبادة، وقيل أنه قدم مصر وأقام بالاسكندرية مدة ثم عاد إلى طوس واشتغل بالتأليف ويقول ابن خلكان أنه :

- ألتزم بالعود إلى نيسابور والتدريس بها بالمدرسة النظامية فأجاب إلى ذلك بعد تكرار المعاودات، ثم ترك ذلك وعاد إلى بيته فى وطنه، واتخذ خانقاه (بيتا) للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم فى جواره، ووزع أوقاته على وظائف الخير من ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب، والعقود للتدريس إلى أن انتقل إلى ربه، وكان ذلك فى يوم الاثنين رابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ.

ومعروف أن الغزالى ألف الكثير من الكتب ومن أشهرها (إحياء علوم الدين) (والمنقذ من الضلال)، و(تهافت الفلاسفة)، و(منهاج العابدين)، و(كيمياء السعادة)، و(المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى)، و(الرسالة اللدنية)، وغير ذلك من المؤلفات التى ترجم الكثير منها إلى مختلف لغات العالم.

لقد كان الإمام الغزالى قامة عالية فى الفكر الإسلامى، بكتبه التى أنارت الطريق لفهم الإسلام فهما صحيحاً . .

وبتصوفه المبنى على الكتاب والسنة، وبمهاجمته للفلاسفة الذين يتصورون أن العقل وحده هو وسيلة المعرفة، بينما العقل له حدود يقف عندها .

أو على حد قول الإمام الراحل الدكتور عبدالحليم محمود وهو يتحدث عن الإمام الغزالى والفلسفة فى كتابه (الفلسفة والحقيقة). . نراه بعد أن يتحدث عن الفلسفة وموقف الإمام الغزالى منها يقول:

« . . على أنه إذا كان يلتمس لليونان العذر فى معالجة هذا الموضوع لعدم وجود الوحى المعصوم الذى يهديهم الطريق، وينير لهم الجادة، فليس هناك من عذر للمسلمين وبين أيديهم رسالة السماء ممثلة (فى القرآن) وهو ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾[هود]، ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ

تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[فصلت] وقد تكفل الله بحفظه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الحجر].

ليس للمسلم إذن - فيما يرى الإمام الغزالى - أن يحاول ابتداع عالم ما وراء الطبيعة ، أو اختراعه عقلياً، ولكن المسلمين أخذوا فيما أخذ فيه اليونان، واعتمدوا على العقل، وألقوا قيادهم إليه، فتفرقوا مذاهب شتى، وطرائق قددا، وأصبح للفلسفة برغم هذا بريق يخطف الأبصار، ولمعان كالسراب يجذب الكثيرين!

ويقول:

لابد إذن من التشمير عن ساعد الجد، وهدم هذا الزيف، وإبطال هذا السحر، حتى يعود الناس إلى الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق. .

وحمل الإمام الغزالى على الأساس التى تقوم عليه الفلسفة وهو (العقل) حملة عنيفة، وهجم عليه هجوماً قوياً، ولم يفتر قط عن مهاجمته منذ ألف كتابه القيم (تهافت الفلاسفة) محاولة موفقة كل التوفيق، جريئة كل الجرأة، طريفة كل الطرافة، وما كان المقصد الأول والهدف الأساسى لهجومه هدم الآراء فى نفسها، فبعضها صحيح، موافق للدين، ومع ذلك فقد هدم الإمام الغزالى، المنهج العقلى الذى استندت إليه هدم الآراء: فخلود النفس مثلاً رأى يقول به الغزالى، ويقول به الفلاسفة، ولكن الإمام الغزالى حمل معوله على طريقة الفلاسفة فى إثبات خلود النفس وهدم أدلتهم ، وضرب بمعولة فيها فانهارت وتهافتت، ومع ذلك فقد كان هو مؤمناً بهذا الخلود، إنه لم يلتزم فى هذا الكتاب إلا تكدير مذهبهم، والتعبير فى وجه أدلتهم بما يبين تهافتهم!

ومقصوده : تنبيه من حسن اعتقاده من الفلاسفة، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ببيان وجوه تهافتهم.

ويقول : أنا لا أدخل فى الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر، لا دخول مدع، مثبت، فأبطل عليهم ما اعتقدوه بإلزامات مختلفة.

فالزمهم : تارة مذهب المعتزلة.

وثانية : مذاهب الكرامية.

وطورا : مذهب الوقفية.

ولا أنهض ذابا عن مذهب مخصوص.

ويقول الأستاذ بلاسيوس:

بحق : إن الغزالى حين سمى كتابه (تهافت الفلاسفة) كان يريد أن يمثل لنا أن العقل الإنسانى يبحث عن الحقيقة، ويريد الوصول إليها، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار؛ فإذا أبصر شعاعاً يشبه نور الحقيقة انخدع به، فرمى بنفسه عليه وتهافت فيه!

ولكنه يخطئ مخدوعاً بأقيسة منطقية خاطئة، فيهلك كما يهلك البعوض.

فكأن الغزالى يريد أن يقول:

أن الفلاسفة خدعوا بأشياء أسرعوا إليها بلا إعمال روية، فتهافتوا ، وهلكوا الهلاك الأبدى.

ويقول الدكتور عبدالحليم محمود أيضاً:

وفى كتاب التهافت هدم الإمام الغزالى عقلياً ما بناه الفلاسفة معتمدين على عقولهم ، وتهافتت الآراء تحت قلمه، ومن الحق أن تقول : إن أدلة الإمام الغزالى فيها من القوة ومن الرسوخ بحيث لا تقل من وجهة النظر العقلية - عن أدلة الفلاسفة العقليين وما من شك أن حملة الإمام الغزالى إنما كانت موجهة أولاً وبالذات إلى العقل.

والقضية المتنازع عليها هى قضية استطاعة العقل الوصول إلى المعرفة اليقينية فى عالم (ما وراء الطبيعة).

الإمام الغزالى ينكر، ويثبت إنكاره بالإخفاق المتتابع للفلاسفة، ويثبته أيضاً بهدم العقل لكل ما بناه العقل نفسه فى هذا الميدان.

والتعارض إذن - والكلام مازال للدكتور عبدالحليم محمود بين الإمام الغزالى والفلاسفة إنما هو تعارض كلى ، ولذلك فإن المحاولات الكثيرة المتعددة لتصحيح آراء الفلاسفة أو لتصحيح بعضها، ونقد الإمام الغزالى فى حملته على هذا الرأى أو ذاك، والانتصار لوجهة النظر الفلسفية فى هذه أو تلك - إن ذلك كله غير مجد فى القضية التى أثارها الإمام الغزالى، وهى محاولات جَهِلَ القائلون بها موضوع النزاع على حقيقته أو تجاهلوه!

ومن هنا كانت محاولة - ابن رشد - وهو أكبر المدافعين عن الفلاسفة تصويب آراء الفلاسفة فى كتابه - تهافت التهافت- عملاً غير مفيد فى حسم النزاع، إذ أن دائرة النزاع الحقيقية إنما هى الأساس الذى بنيت عليه الآراء وليست الآراء نفسها!

والواقع أن فكرة الإمام الغزالى لا تزال للآن تتسم بالسهولة والوضوح والقوة: لقد أخفقتم أيها العقليون، والدليل على إخفاقكم اختلافكم المستمر، هذا الاختلاف الذى أصبح وكأنه القاعدة والمبدأ العام.

ولعل من الجوانب الهامة فى حياة الإمام الغزالى دعوته إلى الأخلاق، والأخلاق عنده هى تلك التى أمر بها الإسلام . . وأن على المسلم أن يراعى جانب الاعتدال ويبتعد عن الغلو والتطرف.

فالخير خير لأن الله أمرنا به.

والشر شر لأن الله نهانا عنه.

وهو يرى أن الإنسان لديه القدرة على تغيير أخلاقه ، وإلا لما أمرنا الشرع بأن نغير أخلاقنا لتتلائم مع ما جاء فى الشريعة الإسلامية، ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام هو القائل:

- بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

ولكى تتمم مكارم الأخلاق لابد من تعديلها وفقاً لتعاليم الدين الحنيف.

ولو كان من الصعوبة تغيير الأخلاق، وأن الإنسان مفطور على ما خلق عليه ما دعا الإسلام للتحلى بالأخلاق الفاضلة.

وكان يرى أن الحيوانات يمكن بالتدريب أن تغير من سلوكها حسب البيئة التى تعيش فيها، وما يعودها عليه الناس رغم أنها لا تمتلك العقل الذى يمتلكه البشر، وبالتالى فمن باب أولى أن الإنسان يمكنه أن يغير من سلوكياته حتى تتفق مع ما جاء به الشرع.

وعن طريق الرياضة والمجاهدة من الممكن أن نكبح جماح الغضب والشهوة، وأن نسلك طريقاً وسطاً، فالإنسان لا يمكن أن يقضى على غرائزه ولكن يمكن أن يهذبها حتى لا يصير عبدا لها.

والمطلوب أن يكون الإنسان معتدلاً فى سلوكياته، أو على حد تعبير الدكتور عاطف العراقى وهو يستعرض فلسفة الغزالى الأخلاقية : أن المطلوب فيما يرى الغزالى هو أن نرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال ، بحيث لا يتغلب الغضب أو تتغلب الشهوة على العقل ، بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما.

هذا يراه الغزالى ممكنا، بل إن هذا هو المراد بتغيير الخلق. صحيح أن الشهوة ربما تستولى على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على إيقافها عند حد معين، ولكن بالرياضة تعود إلى حد الاعتدال، والمشاهدات والتجارب واستقراء أحوال الناس تدلنا على أننا قد ننساق مع الشهوات أحياناً، ولكننا بعد فترة وبعد نوع من المجاهدة والرياضة نتمكن من وضع حدود وضوابط لشهواتنا ويقول أيضاً:

وإذا كان الغزالى قد تأثر بأرسطو فى دعوته إلى الموقف الوسط، وقوله أن الفضيلة وسط بين إفراط وتفريط ، فإنه قد تأثر بالمصدر الإسلامى الذى يتمثل فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أكثر من تأثره بأرسطو.

فهو مثلا حين يبين لنا أن المطلوب هو الوسط فى الأخلاق دون الطرفين، يدلل على ذلك بأن السخاء خلق محمود شرعا، وهو وسط بين طرفى التبذير والتقتير.

وقد أثنى الله تعالى على السخاء فقال:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾[الفرقان: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾[الإسراء: ٢٩].

ويقول الرسول ﷺ: «خير الأمور أوسطها».

وإذا كان السخاء هو المطلوب لأنه يعد وسطا بين طرفين غير مرغوب فيهما، وهما التبذير والتقتير، فإن الشجاعة أيضاً مطلوبة، إذ أنها وسط بين الجبن والتهور، والعفة مطلوبة، إذ أنها وسط بين الشره والجمود.

والاعتدال فى الطعام أيضاً مطلوب، وليس المطلوب هو الشره أو الجوع.. يقول الله تعالى:

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[الأعراف: ٣١].

وهكذا فى سائر الأخلاق، نجد أن المطلوب هو الوسط باستمرار، وهو الذى يمثل موقف الاعتدال لاموقف الإفراط أو التفريط تماماً كما تقول أن الماء الفاتر لا حار ولا بارد، بل هو وسط بين الحار والبارد.

الغزالى إذن كان بمنهجه ورؤيته فيلسوفاً ومصلحاً ومفكراً كبيراً، وقد انتشرت كتبه فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى وترجمت إلى أكثر من لغة، وكان علما بارزاً من أعلام التجديد، والرؤية الإصلاحية.

ولقد عبر الإمام المراغى عن عبقرية الإمام الغزالى بقوله:

- إذا ذكر ابن سينا أو الفرابى خطر بالبال فيلسوفان عظيمان وإذا ذكر ابن عربى خطر رجل صوفى له فى التصوف آراء لها خطورتها.

وإذا ذكر البخارى ومسلم وأحمد خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال.

أما إذا ذكر الغزالى فقد تشعبت النواحى، ولم يخطر بالبال رجل واحد. بل خطر بالبال رجال معدودون لكل واحد قيمته وقدرته.

يخطر بالبال الغزالى الأصولى الماهر.

والغزالى الفقيه الحر.

والغزالى إمام أهل السنة وحامى حماها.

والغزالى الاجتماعى الخبير بأحوال العالم، وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب.

والغزالى الفيلسوف .. أو الذى ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف.

والغزالى المربى.

والغزالى الصوفى الزاهد.

وإن شئت فقل يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره.

و.. ما أكثر ما يمكن أن يكتب ويقال عن الإمام الغزالى الذى كان فكره علامة مضيئة لعصره، وما بعد عصره من عصور.



الإمام

العز بن عبد السلام

- أفتى بتحرير الرقيق من المماليك قبل أن يحكموا مصر.
- رفض الدعاء للسلطان فى دمشق فحددوا إقامته!
- عندما حاول نائب السلطان قتله سقط السيف من يده!.

العز بن عبدالسلام

ولد فى دمشق سنة ٥٧٧ هـ، وعاش ٨٣ عاما، حيث توفى عام ٦٦٠ هـ ودفن بسفح المقطم.

تفتحت عيناه على الحياة ليجد والده يكسب قوته بصعوبة، فهو حينا يصلح الطرق، وحينا آخر يحمل الأمتعة، وفى بعض الأحيان يقوم بتنظيف الشارع أمام المحلات التجارية، وكان يذهب مع والده للصلاة فى جامع دمشق، وعندما مات والده كانت تتوق نفس الصبى إلى العلم، وأن يجلس إلى حلقات العلماء، وأعجب به أحد العلماء (الفخر بن عساكر) وتوسط له أن يعمل فى خدمة المسجد، ثم ساعده بعد ذلك على الالتحاق بحلقات العلم ، وظهر نبوغه وقدرته على الحفظ والاستيعاب مما جعل الشيخ يزداد حدبا عليه ورعاية له وضمه إلى حلقته، بعد أن حفظ القرآن الكريم، وتعلم القراءة والكتابة، وبعض فقه الإمام الشافعى، واستوعب الشيخ دروس اللغة من نحو وصرف ، كما استوعب الفقه وحفظ الأحاديث النبوية، والكثير من تراث الأدب العربى. . وتاقت نفسه إلى استيعاب العلوم التى شاعت فى عصره. . كالفلسفة والطب والكيمياء والتصوف وأتم دراسته، وعمل بالتدريس.

وفى نفس الوقت كان يروعه ما حدث فى العالم الإسلامى من انقسامات بعد موت صلاح الدين الأيوبى، واقتسام إرثه بين أبنائه وأخواته. . وأصبح كل واحد يكيد للآخر. . مما أغرى الصليبيين والتتار فى الطمع فى بلاد المسلمين.

وبدأ الناس يعرفونه فى دمشق. . فخطبه تخاطب القلب والعقل، وكان هو نفسه. . متوسط الطول، يحب المرح دون أن يتعدى ذلك إلى عدم الوقار، مهموماً بقضايا المسلمين. . وكان الرجل رغم نحافته قوى الإرادة.

وفى هذه الفترة عكف على القراءة فى المذاهب والفرق الكلامية من معتزلة وأشاعرة وغيرهم، كما درس فلسفة الإمام الغزالى، وآراء السهروردى المقتول

وفلسفته الإشرافية . . استوعب كل ذلك وأعجب بالأشعرى الذى لم يغال بأهمية العقل كما فعل المعتزلة ، بل كان فكره وسطاً بين المعتزلة وأهل السنة، دون إغفال لدور العقل.

وسطع نجم الشيخ العز بن عبدالسلام حتى سمع به حاكم مصر - الملك الكامل- وأوصى به عند أخيه الملك الأشرف ملك دمشق خيرا. . وطلب من أخيه أن يعينه شيخ حلقة فى الجامع الأموى، مما أثار عليه حنقة وغيرة رجال الدين الآخرين، وخاصة أنه كان يهاجم العلماء الذين لا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وينافقون الحكام.

وأخذ يحدث تلاميذه فى أمور الدين من فقه وأصول وأحاديث دون أن يتقيد بمذهب معين من المذاهب الأربعة، والتف حوله الناس.

وكان الرجل فى ورعه لا يحب أن يتقرب إلى السلطان، فأوغر حاسدوه قلب السلطان عليه، وأوهموه أن له آراء مخالفة لصحيح الدين، ولأن السلطان لم يكن على وعى بأمور الدين فقد صدقهم ، وتوعد الإمام ، وحاول بعض العلماء التوفيق بينه وبين السلطان إلا أن حاشية السلطان من العلماء المتزمتين أوغروا صدره ضده، فما كان منه إلا أن أمر العز أن يلزم بيته ولا يفتى ولا يجتمع بأحد!!

وكان رد العز بن عبدالسلام لرسول السلطان. . إن هذا العقاب من نعم الله الجزيلة علىّ الموجبة للشكر على الدوام، أما الفتيا فإنى كنت والله متبرما منها، واعتقد أن المفتى على شفير جهنم ، ومن سعادتى لزوم بيتى وتفرغى لعبادة ربى والسيد من لزم بيته، وبكى على خطيئته ، واشتغل بطاعة الله ، وعندما علم السلطان برده هذا قال:

قولوا لى ما أفعل به؟ هذا رجل يرى العقوبة نعمة. . اتركوه . . بيننا وبينه الله.

وما كان عزل العز بن عبدالسلام يرضى العلماء، فقد احتج الشيخ جمال الدين الخضرى شيخ الحنفية وابن الحاجب المالكى، وذهبوا إلى السلطان وأقنعوه أن العز لم يخطىء فى فتاويه ، وأنه يجب أن يعتز به بدل أن يحدد إقامته فى منزله إلى أن اقتنع السلطان وأحضر العز بن عبدالسلام واعتذر له وترضاه.

وعندما جاء ملك مصر الكامل لزيادة أخيه الأشرف وعلم بما حدث أنب أخاه وأوصاه مرة أخرى بالشيخ فأصدر السلطان مرسوما بأن يكون إماماً للمسجد الأموى.

وعاد الملك الكامل إلى القاهرة .. وبعدها مرض السلطان، وتولى أخوه الصالح إسماعيل الحكم ، وتراخت قبضته على الحكم وانتشر الفساد والمظالم، مما دعا ملك مصر إلى الذهاب إلى الشام ليضع حداً لاستهتار الصالح إسماعيل ويولى الشيخ عز بن عبدالسلام القضاء، ولكن لم يكد يمسك أمور الحكم حتى عزل الشيخ عز من القضاء.

ومات الملك الكامل ملك مصر، وخلفه أخوه وكان ضعيفاً مستهتراً فخلفه أخوه نجم الدين أيوب.

وكان الصالح إسماعيل قد فتح الباب أمام الصليبيين لشراء السلاح من دمشق، مما أوغر صدر الإمام العز الذى هاجم السلطان، فأمر بسجنه!.

ثم أفرج عنه وأمره بأن يلزم داره، فما كان من العز أن طلب من السلطان أن يسمح له بترك البلاد، وأن يتجه إلى مصر، ففرح السلطان بذلك فقد تخلص من الرجل الذى يتهمه بالخيانة ويؤلب الناس عليه.

ويقول السيوطى وهو يتحدث عن قصة خروجه من دمشق :

« واستطاع ابن عبدالسلام والشيخ جمال الدين أبو عمرو الحاجب الخروج إلى الديار المصرية، فأرسل الصالح إسماعيل إلى عز الدين - وهو فى الطريق - رسولاً يطلب إليه العودة إلى دمشق، فاجتمع به وقال له:

- ما نريد منك شيئاً إلا أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير!!

فرد عليه ابن عبدالسلام :

- يا مسكين .. وما أرضاه أن يقبل يدى فضلا عن أن أقبل يده .. يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد.. والحمد للّه الذى عافانا مما ابتلاكم».

وفى مصر استقبله السلطان نجم الدين أيوب استقبالاً يليق بعالم جليل، وعينه خطيباً لمسجد عمرو بن العاص، ثم ولاه القضاء.

ولكن الرجل النحيف، خفيض الصوت الذى كان لا يهاب إلا اللّه، حدثت بينه وبين فخر الدين عثمان وكان المشرف على شئون القصر صداما، فإن هذا الرجل أقام على ظهر أحد المساجد (طبلخانة) أى مكاناً للطرب والطبل، واستاء الناس من هذا التصرف فكيف يكون الطرب والطبل فوق أحد المساجد ، والرجل يتخذ من وظيفته ونفوذه ما يرعب الناس، إلا أن العز بن عبدالسلام أمر بهدم هذه الطبلخانة ونفذ هذا الحكم.

وعلم العز أن أمراء مصر من المماليك، وأنهم لم يتحرروا من الرق، وطلب من السلطان أن يباعوا فى الأسواق حتى يحرروا من ربقة الرق. وحتى يحق لهم بعد ذلك أن يتبوأوا مناصبهم. . وضاق الأمراء المماليك من ذلك، ولكن فتوى الشيخ كانت قد انتشرت، وتحت الضغط من الإمام العز ومن الناس، اضطر السلطان أن يوافق على بيع هؤلاء المماليك فى الأسواق ثم اشتراهم وأعتقهم، وأخذ أثمانهم ليصرف فى صالح المسلمين. . واعتق السلطان رقابهم!

ويروى التاريخ أن نائب السلطان وقد أزعجه أن يباع فى الأسواق، استل سيفه وركب حصانه متجهاً إلى منزل الإمام العز يريد قتله ، وعندما طرق باب البيت خرج ابن الشيخ فهاله أن يرى نائب السلطان وقد أشهر سيفه يريد قتل الإمام.

ودخل الابن إلى أبيه يخبره بالخبر، فما كان من الإمام إلا أن قال لابنه.

- ياولدى . . أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله ثم خرج ليواجه هذا الطاغية، وما كاد يراه نائب السلطان حتى هابه وسقط السيف من يده وهو يرتعد. . وبكى وسأل الشيخ أن يدعو له!

وكان الرجل عنده الشجاعة الأدبية فهو لا يخشى إلا الله، وقد حدث مرة أن أفتى فتوى وظهر له أنها غير صحيحة فنادى على نفسه.

من أفتى له ابن عبدالسلام بكذا فلا يعمل به، فإنه خطأ.

ويقول ابن كثير عنه:

«كان فى آخر عمره لا يتقيد بالمذاهب، بل اتسع نطاقه، وأفتى بما أدى إليه اجتهاده».

ولما عزل الشيخ نفسه عن القضاء تلطف السلطان فى رده إليه، فباشره مرة، ثم ثانية وتلطف مع السلطان فى إمضاء عزله، فأمضاه وأبقى جميع نوابه من الحكام، وكتب لكل حاكم تقليدا، ثم ولاه التدريس بمدرسته التى أنشأها فى القصر الفاطمى الشرقى، والتى تعرف باسم المدرسة الصالحية.

وأصبح للإمام تلاميذ كثيرون فى مصر منهم ابن دقيق العيد، والإمام علاء الدين بن الحسن الباجى، والشيخ تاج الدين بن الفركاح وغيرهم.

عاش الرجل لايهاب أحداً إلا اللّه.

وظل طوال حياته موضع احترام كل المصريين الذين رأوا فيه إنساناً يقول الحق مهما كانت أشواك الطريق، فقد تصدى للمماليك، وجعل ميزان العدل لا يميل.. ووقف بجانب الضعفاء والمساكين.. وكان مع ذلك متفرغاً للعلم، فألف كتاب (القواعد الكبرى) وكتاب (مجاز القرآن) وشجرة المعارف، كما أن له مختصر (صحيح مسلم) ومختصر رعاية المحاسبى وغير ذلك من المصنفات.

وكان الرجل بجانب ذلك متصوفاً زاهداً محباً لله ورسوله.

بل قالوا عنه أن له كرامات كثيرة ولكنه كان ينفى ذلك عن نفسه.

والرجل الذى عاش فى دمشق صباه وشبابه لم ينس الناس مواقفه، خاصة عندما هاجم السلطان الذى يهادن الصليبيين، ويتعامل معهم، بل يسمح لهم بشراء الأسلحة من دمشق ليقتلوا بها المسلمين فى فلسطين وغيرها من البلاد التى وقعت تحت قبضة الصليبيين، مما حدا به ألا يدعو للسلطان على منبر المسجد، بل كان يدعو هذا الدعاء.

«اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد، تعز فيه أولياءك، وتذل فيه أعداءك ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه معصيتك».

ولم ينس الإمام قط كيف كان الناس يرددون هذا الدعاء بإيمان عميق، وحرارة من يريدون أن يتحرروا من عبودية الصليبيين الذين جاءوا إلى الشرق طمعا فى ثرواته، وليس لحماية مقدساتهم من المسلمين.

ولم ينس له الناس فى مصر مواقفه التى لا تعرف الانحناء ولا التملق ولا الرياء للحكام فلم يخش إلا الله، وواجه المماليك رغم صولتهم وهيبتهم وهيمنتهم على رقاب الناس فأذلهم وباعهم كرقيق فى الأسواق، مما جعل المصريون يرون فيه إنساناً . . جليلاً . . مهاباً . . رغم تواضعه، ولا يعرف إلا تطبيق شرع الله.

وها هو قد بلغ الثالثة والثمانين من العمر . . قد أقعده المرض على أن يذهب إلى المدرسة السلطانية ليلقى دروسه . . ولكن الحنين كان يدفعه دفعاً أن يلتقى بتلاميذه، وأن يسمعوا منه ما تعلمه وما اجتهد فيه، ليعرفوا أمور دينهم وأمور دنياهم على هدى من الشرع الحنيف، ولكن جسده الذى أنهكه التعب، لم يسعفه فى ذلك.

وذات يوم صمم على أن يذهب إلى المدرسة، وأن يلتقى بتلاميذه ، وتغلب على أوجاع المرض وأوجاع الشيخوخة ، واستعان بأحد أبنائه إلى أن ذهب وجلس بين الناس، واستراح إلى أن استرد أنفاسه ثم أخذ يشرح ويفسر لهم الآية الكريمة.

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ . . ﴿٣٥﴾ ﴾[النور].

أثناء تفسيره لهذه الآية الكريمة والناس كلهم آذاناً صاغية لكلمات الإمام الجليل مال الرجل بجسمه ثم صمت فقد مات الإمام العز بن عبدالسلام مات الإمام الذى كانت آخر كلماته التى نطق بها ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

وكانت وفاته فى جمادى الأولى سنة ٦٦٠هـ، وشيعته جماهير مصر الوفية إلى مثواه الأخير، وفى مقدمتهم الظاهر بيبرس، الذى حمل النعش بنفسه تقديراً لهذا الإمام الجليل، ودفن فى الضريح الذى يحمل اسمه بسفح المقطم فى منطقة البساتين . . وان كان ضريحة الآن فى حاجة إلى العناية بما يليق بهذا الإمام الذى ظل وسيظل اسمه فى أنصع صفحات التاريخ.



الإمام

محمد عبده

- كوَّن مدرسة للإصلاح رغم السجن والنفى!

الإمام محمد عبده

الإمام محمد عبده أحد أعلام الفكر الإسلامى، فهو مفكر مستنير قدم لوطنه ولدينه كل ما هو جدير بالتقدير والاحترام، وكانت دعوته إلى احترام العقل، وتطوير الأزهر، والإصلاح الاجتماعى نقطة انطلاق إلى حياة جديدة . . لا تركن إلى التقليد بل تندفع إلى الأخذ بمبادئ القوة، والنهج العلمى والعقلى، حتى تنطلق الأمة إلى غد مشرق . .

غد يتحرر فيه المسلمون من ربقة الاستعمار الأجنبى، وأن يأخذوا بالأسباب التى تدفعهم إلى التقدم إلى النور، وعدم الاستغراق فى ظلام الجهالة، ومن هنا لم يكن غريباً أن يقول عنه جمال الدين الأفغانى عندما خرج من مصر إلى منفاه.

- لقد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالماً.

ولم تسر الحياة بالإمام محمد عبده كما كان ينبغى ، بل تعرض للنفى والتشريد، والبعد عن الوطن الذى نشأ فيه وأحبه، ولكنه فى منفاه فى بيروت، أو عندما ذهب إلى باريس، لم يكن بالإنسان الخامل الذى استسلم لما فعله به الطغاة، بل قام بالتدريس فى بيروت، وأصدر مع أستاذه جمال الدين الأفغانى جريدة العروة الوثقى، لتكون لسان حال الذين يتطلعون إلى التحرر، وبث دوافع الحركة نحو التفكير السليم، والحرص على الاستقلال لكافة العالم الإسلامى، وليس وطنه مصر وحده. . وبلغ من نضج تفكيره أن راسل مفكرو العالم وأدبائه، من أمثال الكاتب والروائى الروسى الشهير تولستوى.

ومن هنا لم يكن غريباً أن يقول عنه محامى العرابيين (مستر برودلى) كلمة إنصاف، عندما رسم صورة للإمام الجليل قائلا:

ربما كان الشيخ محمد عبده أعظم الناس موهبة بين الرجال الوطنيين المصريين،

وقد أثر فى الطبقة المهذبة من أهل وطنه تأثيراً ظاهراً ، لأنه كان كاتباً لطيفاً، وعالماً بالعربية ضليعاً ، وخطيبا فصيحاً ينفذ إلى القلوب، ولا شك أنه ساعد كثيراً على جعل الرأى العام عاملا فى الترقى المصرى.

ولد محمد عبده فى محلة نصر من أعمال البحيرة ١٨٤٩م، وحفظ القرآن، ودخل الأزهر الشريف وتعرف فى عام ١٢٨٧هـ على الشيخ جمال الدين الأفغانى وتأثر به، وتخرج الإمام محمد عبده فى الأزهر الشريف.

وعرفته الحياة العامة عالماً جليلاً حريصاً على تجديد الفكر الدينى، وتجديد الحياة فى مصر، حتى أن قاسم أمين كتب عنه:

« أنه ذو مقام مكنه من أن يمسك بيده زمام أمة بأسرها، ويحركها نحو الغاية التى رسمها ، ويسوقها إلى طريق المستقبل الذى هيأه لها ».

وفى كل موقع تولاه، سواء فى كتاباته فى الوقائع المصرية، أو فى غيرها، نراه حريصاً على وطنه ، مبعدا نفسه عن السجع الذى كان يسود الكتابة فى هذا العصر، كما أنه فى الوقائع كان يتحدث عن هموم الناس ويعبر عنها بأسلوب مشرق، كما كان يدافع عن الدين الحنيف بأسلوب عقلانى، بعيدا عن الأساطير والخرافات، مطالباً بالإصلاح الاجتماعى، وموضحاً قوة وأهمية الرأى العام فى مستقبل الوطن.

وعندما نفى خارج بلادة، لم تلن له قناة فى سبيل العمل على خلق رأى عام قوى، كما لم تلن له قناة أيضاً عندما تعرض إلى محنة السجن فى بلاده.

كان يخرج من هذه المحن وهو أشد عزماً على تحقيق ما تصبو إليه نفسه من تحرير مصر من الاستبداد والاستعمار، وعلى أن تكون التربية السليمة وسيلة للنهضة والنهوض إلى واقع جديد.. يفهم فيه الدين فهماً مستنيراً ، ويفهم المواطن حقه فى المواطنة.. فللحاكم حقوق.. وللمواطن حقوق.

ولا ينبغى أن يتعدى أحد على حقوق أحد.. أنه يقول:

« .. وهناك أمر كنت من دعاته، والناس جميعاً فى عمى عنه، ولكنه الركن الذى تقوم عليها حياتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذل ألا يخلو

مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ».

نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها، وهى لم يخطر لها هذا الخاطر على البال من مدة تزيد عن العشرين قرنا.

- دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته، فهو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم، وأنه لا يرده عن خطئه، ولا يوقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل.

«جهرنا بهذا القول والاستبداد فى عنفوانه.

والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد، والناس عبيد له أى عبيد».

وقد بلغ من نفوذ الرجل وتأثيره على الناس أن الإنجليز استطاعوا إغلاق «العروة الوثقى» ومنعها من دخول البلاد الواقعة تحت نفوذهم فى الهند وغيرها.. وعندما رجع إلى بيروت .. ظل المدافع عن حقوق الناس وظل يرسل ومضات علمه فى كل مكان ، إلى أن عاد إلى مصر من منفاه عام ١٣٠٦هـ، ليواصل نضاله وجهاده على مختلف المستويات.

وعين قاضياً بالمحاكم الشرعية، ثم مستشاراً فى محكمة الاستئناف ثم عين مفتياً للديار المصرية سنة ١٨٩٩م.

ويقول الدكتور عثمان أمين فى دراسته عنه فى كتاب (رواد الوعى الإنسانى فى الشرق الإسلامى).

«.. وامتازت فتاوى الأستاذ الإمام بالميل إلى التسامح، واستقلال الرأى ، والبعد عن التقليد، والملائمة بين روح الإسلام ومطالب المدنية الحديثة»

وأشهر الفتاوى التى أصدرها اثنتان تبيح للمسلمين بأن يأكلوا من ذبائح غير المسلمين عند الضرورة والثانية تبيح لهم أن يتزينوا بزى غير زيهم التقليدى تيسيراً لهم فى أمور معاشهم.

وقد سببت هذه الفتاوى كثيراً من المجادلات ، وأثارت سخط الشيوخ المتزمتين، وجلبت على المفتى ضروباً من القدح والتشهير، لم تكن الدوافع إليها دينية خالصة فى أكثر الأحيان.

وفى ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ عين محمد عبده عضوا فى مجلس شورى القوانين، فسار على سياسة ترمى إلى تربية الرأى العام فى مصر، وتعويد الأمة دقة النقد والتمحيص والسمو عن الأشخاص والأغراض الخاصة، واستهداف المصالح القومية الكبرى.

وعمل الشيخ عن طريق (الجمعية الخيرية الإسلامية) التى كان من أوائل مؤسسيها، على تحقيق إصلاح أخلاقى اجتماعى، يذكى فى الناس روح الاعتماد على النفس والتعاون بين الأفراد، وإشعار قلوب الأغنياء عاطفة الرحمة والإحسان إلى الفقراء، وكان صوته أول صوت ارتفع فى الشرق العربى الحديث منادياً بنشر مبادئ العدالة الاجتماعية حتى يستتب السلام بين الطبقات.

وإلى الأستاذ يرجع الفضل فى إنشاء (مدرسة القضاء الشرعى) والعمل على إصلاح المحاكم الشرعية ، كما أسس (جمعية إحياء الكتب العربية القديمة).

وفى عام ١٩٠٠ حدث أن نشر وزير خارجية فرنسا:

– جبريل هانوتو – مقالاً فى صحيفة (لوجورنال) الباريسية بعنوان : موقفنا من الإسلام والمسألة الإسلامية .. فلما ترجم المقال فى جريدة (المؤيد) بادر الأستاذ الإمام بالرد عليه، ففند ما زعمه (هانوتو) من فوارق بين المسيحية والإسلام فيما يتصل بطبيعة (الله) وحقيقة القدر وحرية الأفعال، كما أنكر ما زعمه (هانوتو) من قيام التعارض بين الساميين والآريين، ولامه فى النهاية لاستخدامه معلوماته التاريخية فى محاولة التأثير على أفكار الفرنسيين الذين تجهل أغلبيتهم حقيقة الإسلام.

وقد اشتهر هذا الرد ، كما اشتهر رد الإمام على (فرح انطون) الذى نشر مقالاً عن الفيلسوف (ابن رشد) ورد فى سياقه تعريض بالإسلام (وقد نشر الأستاذ الإمام رده هذا مبسوطاً فى كتابه (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية).

وفى سنة ١٩٠٥ شرع محمد عبده فى نشر الدعوة لإنشاء جامعة مصرية تقوم إلى جانب الجامعة الأزهرية، ولم يقنع بالتفكير بل خرج المشروع إلى التنفيذ فأقنع أحمد المنشاوى باشا بأن يوقف لبناء الجامعة قطعة أرض فى إحدى ضواحى القاهرة، ولكن موت المنشاوى باشا أوقف المشروع.

وفى ١١ يوليو ١٩٠٥م توفى الإمام فى أوج نشاطه وكانت وفاته حداداً عاماً للبلاد العربية والإسلامية جميعاً.

لن ينسى له التاريخ مواقفه الرائعة مع الحرية، وضد الطغيان ومؤازرته لقاسم أمين لتحرير المرأة المصرية.

كما لن ينسى له التاريخ دفاعه المجيد عن وطنه وحقه فى الحرية والاستقلال.

كما لن ينسى له التاريخ مواقفه العملية فى الإصلاح كما طالب بالتجديد والبعد عن التقليد ، وأن يدرس التراث، ولكن بروح عقلية، فنأخذ المفيد من هذا التراث، وندع ما لا يفيد.

وأوضح أن ضعف المسلمين يرجع إلى عدم فهم الإسلام فهماً سليماً، فالإسلام هو دين العلم. . والإسلام هو دين الحضارة. . والإسلام هو دين التقدم، لأنه يدعو إلى كل ذلك.

فهو مثلاً يرد على الذين يتواكلون، ولا يعملون، ويرجعون ذلك إلى ما كتب على الإنسان فيقول:

- إن الله لم يأمرنا بأن نهمل واجباتنا بحجة التوكل عليه، فإن هذا لمن سخف الرأى، ولا يمكن أن يحتج به إلا قوم لا أخلاق لهم ولا دين

- ويتحدث عن الإرادة الإنسانية . وأن هذه الإرادة هى منطق الثواب والعقاب.

ويقول الدكتور / عثمان أمين:

- إن المفكرين لحرية الأفعال الإنسانية يحتجون بالآية القرآنية:

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[الصافات].

ويفسرونها على معنى أن الله هو خالق أعمال الناس، ولكن محمد عبده يلاحظ أن هذه الآية نفسها تقول ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فهى بذلك تقيد نسبة العمل إلى الإنسان.

ولكنهم قد يزعمون أننا إذا حرصنا على إثبات الحرية الإنسانية، فقد رفعنا إرادة الإنسان إلى مرتبة الإرادة الإلهية، وهذا يؤدى إلى (الشرك) بالله، لكن الفيلسوف يدفع ذلك الاعتراض على وجه لا يخلو من طرافة ، فيبين أن الإنسان الذى يقترف إثم (الشرك) ليس هو الإنسان الذى يعوّل على قواه الخاصة، ويعد نفسه مسيطراً على أهوائها، مسئولا عن تصرفاتها ، بل المشرك هو الذى يعتقد أن لغير الله أثرا فوق ما وهبه الله من الأسباب الطبيعية الظاهرة، وأن لشىء من الأشياء سلطانا على ما خرج عن قدرة الإنسان ثم أن المشرك هو من يعظم سوى الله مستعيناً به فيما لا يقدر الإنسان عليه، كالاستنصار فى الحرب بغير قوة الجيوش، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله إليها، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التى شرعها الله.

على أن التوكل الصحيح لا يعنى شيئاً آخر سوى الثقة بالله مع استعمال الأسباب الطبيعية من أجل غايات ترسمها عقولنا.

فلا نكون متوكلين حق التوكل حتى نستعمل نفوسنا فى الوسائل التى توصلنا إلى بلوغ الغاية من أعمالنا، وأن تجيد الاستعمال حتى لا يقع لنا ضلال فى طريق الوصول إلى المقصود.

ويرى أن عقيدة (القضاء والقدر) . . إذا فهمت على الوجه السليم، وخلصت من شناعة القول بالجبر، لا يمكن أن يكون لها على الأخلاق إلا أثراً حميداً، تبعث النفوس على الإقدام والشجاعة، واحتمال المكاره ، واقتحام الأهوال، وتبث فيه روح التضحية، وتطبعها على السخاء والثبات، وبذل ما هو عزيز فى سبيل الفكرة والعقيدة، والذى يعتقد أن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء. . كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته؟

وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق، وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهية، وأصول الاجتماعات البشرية؟

و. . وما أكثر ما يمكن أن يقال عن الأستاذ الإمام.

و. . ما أكثر ما قدمه من فكر ناضج لنهوض وطنه ونهوض الشعوب الإسلامية من رق التخلف، ورق الاستعمار وكان يؤمن بأن الشرق فى حاجة إلى الحاكم العادل وأن النهوض بالأمة يبدأ بالنهوض بالأسرة، وبث القيم الأخلاقية الكريمة، والتربية السليمة التى تخلق وعياً ناضجاً بما ينبغى أن تكون عليه الحياة. .

وكانت مؤلفاته علامة طريق فى أن نعنى بالعقل وتكون نظرتنا للحياة نظرة عقلية، حتى تستقيم الأمور ويتضح الواقع، ونعرف موضع أقدامنا.

ونرى فى كتابه (الإسلام دين العلم والمدنية) رأى الإمام فى تجديد حياتنا من خلاله مذهبه الإصلاحى وهذا الكتاب كما يحدثنا عنه الدكتور عاطف العراقى يكشف عن سعة اطلاع الأستاذ الإمام، وعمق ثقافته الدينية الإسلامية، واهتمامه اهتماماً كبيراً بالدفاع عن الإسلام، وسيجد القارئ لهذا الكتاب كيف يقوم محمد عبده وهو رجل دين أساساً بتوظيف الأفكار الدينية، وبحيث لا تكون أفكاراً جديدة معزولة عن مجتمعنا.

ويقول: إننا الآن وأكثر من أى وقت مضى فى أمس الحاجة إلى العديد من الأفكار التى نجدها فى هذا الكتاب وغيرها من كتب ورسائل تركها لنا الشيخ محمد عبده رغم مرور ما يقرب من قرن من الزمان على تأليفها. . ولعل هذا إن دلنا على شىء، فإنما يدلنا على أن الفهم المتفتح للدين وأحكامه هو الذى يقدر له البقاء؛ بل سيكون فى واد، وتكون حياتنا الفكرية والاجتماعية فى واد آخر.

ومعنى هذا أن الفهم المتفتح يكون فى صالح الدين وليس ضدا له، وفى حين أن الفهم المغلق الجامد يحمل فى طياته الإساءة إلى الدين وإبعاده عن حياتنا ولكن ماذا نفعل حيال قوم يفضلون ظلام العدم على نور الوجود. . بل من مصائب الزمان وكوارث الدهر أنهم لا يرتضون الظلام لأنفسهم فقط، بل يقومون بالدعوة إلى

إشاعة الفكر المظلم ، الفكر التقليدى الأسطورى، وذلك حتى تصبح حياتنا ظلاماً فى ظلام.

هذه كلها جوانب ينبغى الإشارة إليها، وتعد ضرورية لسبر أغوار العديد من الأفكار التى نجدها فى كتاب (الإسلام دين العلم والمدنية) وفى بقية كتابات الأستاذ الإمام بحيث أن منهجه الإصلاحى نجده سارياً فى أكثر كتبه ورسائله.

وما أكثر ما يمكن أن يكتب عن الأستاذ الإمام، بل ربما لا تكفى مجلدات للحديث عن الأثر الذى تركه الأستاذ الإمام فى دفع حركة الحياة فى بلادنا نحو التقدم والاستنارة . . ولا نستطيع أن نختم الكلام عن هذا الإمام الجليل، دون أن نتحدث عن (الرجل الكبير) فى نظر الإمام لأنه كان رجلاً كبيراً . . إنه يقول:

الرجل الكبير يحس ويتألم ، ويدفعه الألم إلى أن يتكلم، بل تحمله شدة الإلم على أن يجاهد فى قومه وهم أحب الناس إليه، ويقاتلهم ليدافع عن موارد الهلكة وهم أعز الخلق عليه، ولكن قد يبلغ بهم العمى أو قصر النظر أن يعدوه عدوا لهم . . وكلما دعاهم إلى الحركة دعوه إلى السكون.

وكلما أخذ بهم إلى الفزع جذبوه إلى الركون، وهم أكثر منه عدداً، وأوفر عددا، فلا يمضى طويل من الزمن حتى يخفت صوته من كثرة الصياح، وينقطع نفسه من الدعوة إلى الإصلاح، وتضعف عزيمته، وتضمحل همته، فإذا جاء عدو . . وأحسوا بشدة الصدمة صاحوا ولكن صياح الثاكلة العاجزة، تتنفس الصعداء، وحسرة تصعد إلى السماء، مع القعود فى المساكن، والخلود إلى أخس المنازل، فينتهى بهم الأمر إلى الاضمحلال، وما بعد الاضمحلال إلا الزوال . . إن كان بالأمة ليس نوما، فيزول بالإيقاظ ، ولا غفلة، فتذهب بالتنبيه، وإنما هو خدر شلت به الأعصاب، وذيلت به العروق ، فماذا يكون فعل الرجل الكبير؟

يجهد عقله فى البحث عن الدواء، ويستعمل ما لديه من قوة فى معالجة الداء، وهيهات أن يشعر به المريض، بل هو تارة يضحك ضحكة المستهزئ، وأخرى يبكى

بكاء البائس، وتارة يضرب الطبيب بما حضر لديه، أو بيديه ورجليه حتى يقضى عليه.

وإذن فما الذى يصفه الرجل الكبير؟

يسعى ويجد ثم يموت محروماً من ثمرة عمله ، باكياً عن خيبة أمله.

ولكن هل كل ذلك يقضى على الرجل الكبير بأن يصغر؟

وهل يحكم على العظيم فى نفسه بأن يحقر؟

كلا . . فإنما هو يؤدى واجباً عليه، والله وراء ذلك والمرجع إليه.

رحم الله الإمام.

كان عظيماً رغم ما تحمله من محن السجن والنفى والبعد عن الوطن. . كما كان عظيماً أيضاً فى تشخيصه لأمراض المجتمع والطريق إلى أن يتعافى، ويصل إلى واقع أكثر أملاً وإشراقاً . . وإنتاجاً. . بالعلم. . والعمل. . والاجتهاد. . وفهم الدين فهماً واعياً مستنيراً. . وكون مدرسة من التلاميذ الذين نهضوا بهذا الوطن من أمثال سعد زغلول، ولطفى السيد، وقاسم أمين، وغيرهم

أهم المراجع

١ - الحسين أبو الشهداء - عباس العقاد.

٢ - عبقرية الإمام - عباس العقاد.

٣ - سيد الشهداء الإمام الحسين - موسى محمد على.

٤ - أئمة الفقه التسعة - عبدالرحمن الشرقاوى.

٥ - أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح - المستشار عبدالحليم الجندى.

٦ - الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصول - المستشار عبدالحليم الجندى.

٧ - ضحى الإسلام - أحمد أمين.

٨ - المسند لابن حنبل - الشيخ محمد أبو زهرة.

٩ - ميراث الفقراء - فؤاد شاكر.

١٠- الفلسفة العربية والطريق للمستقبل - د. عاطف العراقى.

١١- العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر - د. عاطف العراقى.

١٢- مدخل إلى التصوف الإسلامى - د. أبو الوفا التفتازانى.

١٣- المحدثون فى مصر والأزهر - د. أحمد عمر هاشم.

١٤- مرشد الزوار إلى قبور الأبرار - الإمام موفق الدين بن عثمان - حققه : محمد فتحى أبو بكر.

١٥- مساجد مصر وأولياؤها الصالحون - د. سعاد ماهر.

١٦- الإسلام دين العلم والمدنية - الشيخ محمد عبده.

١٧- رواد الوعى الإنسانى - د. عثمان أمين.
١٨- أقلام ثائرة - حسن شيحه.
١٩- رجال حول الرسول - خالد محمد خالد.
٢٠- الإمام الحسين حياته واستشهاده - مأمون غريب.

كتب للمؤلف عن مركز الكتاب للنشر

١ - خلافة أبو بكر الصديق .

٢ - خلافة عمر بن الخطاب .

٣ - خلافة عثمان بن عفان .

٤ - خلافة على بن أبى طالب .

٥ - حجة الإسلام الإمام الغزالى .

٦ - العوالم الخفية والقرآن الكريم .

٧ - أبطال الجهاد فى الإسلام .

٨ - المهاجرون إلى الله .

٩ - أولو العزم من الرسل .

١٠ - الإمام الحسين حياته واستشهاده .

١١ - نساء فى حياة الأنبياء .

١٢ - إبحار فى ملكوت الله .

١٣ - عمر بن عبدالعزيز خامس الخلفاء الراشدين .

١٤ - بطلة كربلاء السيدة زينب رضى الله عنها .

١٥ - بلغة عصرية أجمل قصص ألف ليلة وليلة .



رقــم الايــداع : ١٦٨٢ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى : 5 - 292 - 294 - 977

مطابع آمــون

٤ الفيروز من ش إسماعيل اباظـة
لاظوغلى - القــاهرة - ج م ع
ت : ٧٩٤٤٥١٧ ـ ٧٩٤٤٣٥٦